العلاقات المصرية - الهندية
في العصر المملوكي
دراسة في الجوانب السياسية والحضارية

د. ياسر عبد الجواد المشهداني

32
4
M3



العلاقات المصرية – الهندية

في العصر المملوكي

دراسة في الجوانب السياسية والحضارية

دكتور / ياسر عبد الجواد المشهداني

الناشر

المكتب العربي للمعارف

عنوان الكتاب : العلاقات المصرية الهندية في العصر المملوكي
اسم المؤلف : دكتور/ ياسر عبد الجواد المشهداني
تصميم الغلاف : شريف الغالي

جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للناشر

الناشر
المكتب العربي للمعارف

٢٦ شارع حسين خضر من شارع عبد العزيز فهمي

ميدان هليوبوليس - مصر الجديدة - القاهرة

تليفون/ فاكس: ٢٦٤٢٣١١٠-٠١٢٨٣٣٢٢٢٧٣

بريد إلكتروني : Malghaly@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠١٥

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١١٥٧٩

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 978-977-276-742-7

جميع حقوق الطبع والتوزيع مملوكة للناشر ويحظر النقل أو الترجمة أو الاقتباس من هذا الكتاب في أي شكل كان جزئيا كان أو كليا بدون إذن خطي من الناشر، وهذه الحقوق محفوظة بالنسبة إلى كل الدول العربية . وقد اتخذت كافة إجراءات التسجيل والحماية في العالم العربي بموجب الاتفاقيات الدولية لحماية الحقوق الفنية والأدبية .

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيُها الناسُ إنَّا خلقناكُم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعُوبًا وقبائل لِتعارفُوا إنَّ أَكْرَمكم عندَ اللهِ أتقاكم إنَّ اللهَ عليمٌ خبير

سورة الحجرات

الآية (١٤)

إهداء......

إلى.....

أمي وأبي وعائلتي المكافحة الوفية...

إلى كل من أحبّني وساندني بروحٍ أخوية...

إلى كل من أحب العطور والبخور والتوابل الهندية..

إلى كل من تأثر بتاريخ وحضارة مصر المملوكية..

والى كل باحثٍ يهمه عالم العصور الوسطى الإسلامية..

إلى من جرت مجرى الدم مني فأعطت حياتي رونقًا جديدًا فكانت من السماء هدية..

د. ياسر المشهداني

المقدمة

مما لا شك فيه أن دراسةِ العلاقات السلمية بين البلدان والشعوب أسهمت بصورة كبيرة في إغناء الحضارة والتراث وتطويرهما في مختلف العصور التاريخية. وعلى هذا تأتي أهمية موضوع (العلاقات المصرية الهندية ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م). فقد اتصل سكان مصر القديمة مع شعوب شبه القارة الهندية منذ مدد قديمة قبل الميلاد، وكان لذلك الاتصال أثره المهم في إنضاج المعرفة ومختلف جوانب الحضارة القديمة التي شهدها البلدان وتطويرها ومنذ الربع الأول من القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد وصل الدين الإسلامي إلى مصر إذ أصبحت إقليمًا تابعًا للدولة العربية الإسلامية واستمر ذلك لغاية خضوع مصر لحكم الفاطميين (٣٥٨هـ/٩٦٨م) ومن ثم الأيوبيين (٥٦٧هـ/١١٧١م) في حين تم فتح الأجزاء الغربية من الهند (السند) قبيل نهاية القرن المذكور في أعلاه، وبذلك أصبح كل منهما إقليمًا تابعًا للدولة العربية الإسلامية.

وتكمن أهمية بحثنا في أعلاه من أنه يؤشر مرحلة جديدة في كل من مصر والهند، فقد ظهرت في الهند السلطنة الإسلامية (٦٠٢هـ/١٢٠٦م) والتي تعد أول نظام حكم إسلامي يحمل هذا اللقب من داخل الهند، حيث امتد نفوذ الإسلام وحكمه تدريجيًا إلى مختلف أقاليم الهند وكان سلاطين الهند على علاقة ودية مع الخلافة العباسية في بغداد أولاً ثم تابعوها بعد انتقالها إلى القاهرة.

أما مصر فقد حكمتها أسر من المماليك سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) وقدم إليها عدد من أبناء الخلفاء العباسيين (بعد احتلال المغول لبغداد) الأمر الذي أضفى عليها أهمية خاصة.

ومن الواضح أن مصلحة مصر والهند حتمت عليهما تطوير العلاقات بينهما في مختلف الجوانب وإدامتها واستمر ذلك لغاية اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وبداية ظهور (البرتغاليين) في مياه المحيط الهندي ثم بداية ظهور (العثمانيين) في الوطن العربي وصولاً إلى مصر بعد معركة مرج دابق (٩٢٣هـ/١٥١٧م) إذ تدهورت العلاقات المصرية الهندية للأسباب في أعلاه.

وعليه فان المدة التي أشرها البحث شهدت أفضل أنواع العلاقات بين مصر والهند وأشملها ولذلك يمكن عدّها من الدراسات النادرة والمهمة التي لم تحظ بالاهتمام والعناية الكافية في مجال الدراسات العربية الإسلامية، بما أفرزته من جوانب إيجابية كثيرة أسهمت في إغناء الحضارة والتراث العربي الإسلامي. وعليه فان هذا البحث محاولة متواضعة على هذا الطريق بهدف إلقاء الضوء على تلك الجوانب والمجالات من جهة، ولإبراز الدور الريادي العربي من جهة أخرى وما يمكن ان يترتب على ذلك من إعادة جسور العلاقات وخدمة قضايانا المشتركة مع تلك الشعوب في الوقت الحاضر.

اشتمل البحث على أربعة فصول وخاتمة تضمن الفصل الأول (الخلفية التاريخية للعلاقات المصرية الهندية) التطرق إلى الموقع الجغرافي والحدود لكل من مصر والهند، ثم استعراض أقدم الصلات بينهما. وقد انتهى الفصل بالإشارة إلى تطور العلاقات بينهما منذ ظهور الإسلام ولغاية ظهور حكم المماليك في البلدين.

أما الفصل الثاني (العلاقات السياسية والعسكرية) فتناول التعرف على الأسر الحاكمة في البلدين وظروفها السياسية مع التركيز على مظاهر العلاقات السياسية بينهما، كتبادل الوفود والسفارات ورسائل التفويض بالحكم من الخليفة وغيرهما، ومن ثم تطورها إلى الجانب العسكري، في حين تناول الفصل الثالث (العلاقات التجارية) التعرف على الإمكانات الاقتصادية للبلدين كليهما، والطريق البحري الموصل بينهما وما كان عليه من موانئ، مع الإشارة إلى أنواع السفن التجارية وأوقات إبحارها وما كانت تحمله من مواد (صادرات وواردات) فضلاً عن وسائل البيع والشراء والضرائب، مع التعرف على دور تجار الكارم في تطوير العلاقات المصرية الهندية.

وانتهى البحث في الفصل الرابع (الصلات الثقافية) إذ حاولنا فيه التعرف على طبيعة العلوم لدى مصر والهند ومراكز التعليم فيهما، وتتبع حركة العلماء وطلاب العلم بين البلدين ومن ثم إبراز دور المصريين الثقافي والديني في الهند كما وكان مسك الختام خاتمة أبرزت النتائج التي توصل إليها الباحث، فضلاً عن عدد من الملاحق والخرائط ذات الصلة.

اعتمد البحث على عدد غير قليل من المصادر والمراجع تنوعت ما بين مصنفات التواريخ العامة والتواريخ المحلية، والرحلات، ومصنفات التراجم والمصادر البلدانية وغيرها وبحسب أهميتها للبحث، ويأتي في مقدمتها : (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) للعلامة أبي الريحان محمد البيروني (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) والذي عدّ وفوده إلى الهند وإقامته فيها لأكثر من أربعين سنة من أهم مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في الهند حتى العهد الغزنوي، ويعد كتابه المذكور مصدرًا أساسيًا لدراسة العلوم العربية الإسلامية في الهند وتعريف القارئ بما لدى الهنود من عقائد وتقاليد اجتماعية متعددة.

أما عن تاريخ مصر فلعل أبرز المصادر التي استفاد منها البحث هي مؤلفات تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٩م) إذ توافرت في كتبه الخاصة بمصر صدق الرواية والمشاهدة المباشرة على عدد من الحوادث فضلاً عمّا اعتمد عليه المقريزي نفسه من مصادر موثوقة أثناء حديثه عن الوقائع التي سبقت فترته ، ومن أهم مصنفات المقريزي المعتمدة : (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) أو (الخطط المقريزية) الذي وصف فيه حال مدينة القاهرة أثناء حكم المماليك لها فضلاً عن وصفه واستعراضه لمدن مصر وتسمياتها. كما بين في مصنفه الآخر (السلوك لمعرفة دول الملوك) تفصيلات ومعلومات مهمة عن النواحي الاقتصادية للمماليك وعلاقتهم مع الهند بشكل مباشر أحيانًا فضلاً عن توسعه بذكر واردات التجارة الهندية واستيفائها في الموانئ المصرية.

ومن بين المصادر المهمة الأخرى التي أفادت البحث : (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) للمؤرخ جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) حيث أورد فيه نصوصًا في سياسة المماليك واستعرض أغلب السفارات السياسية الواردة من والى مصر ثم الهند.

وتعد (رحلة ابن بطوطة) أبي عبد الله محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) مصدرًا مهمًا أخرًا للتعرف بأحوال الهند بتلك الفترة فكان ابن بطوطة يعنى بمتابعة النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في رحلته، فقد ذكر أهم ما تمتاز به المدن الهندية التي زارها من منتجات وزروع كما أتيح له

أن يظفر بمكانة كبيرة عند سلطان دلهي (محمد تغلق شاه) وأن يدون في سيرته الكثير من المعلومات المتعلقة بالعلماء وعلاقته بالخلافة العباسية في القاهرة. كما وقدم المصنف الكبير (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للمؤرخ احمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) الكثير من التفاصيل في شتى المجالات فقد وصف مميزات أرباب السيوف وأرباب الأقلام في الديار المصرية واستعرض أيضًا المكاتبات والتفاويض الجارية بين سلاطين الهند الإسلامية وسلاطين المماليك، والخلفاء العباسيين في القاهرة من أجل الحصول على تفاويض الحكم، والقلقشندي وإن كان قد نقل عن ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) في (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) إلا أن معلوماته جاءت منسقة وواضحة ومبوبة بشكل لائق بعد أن فصلها وعلق عليها.

أما ما يتعلق بكتب التراجم للأشخاص فقد استفاد البحث منها لمعرفة تراجم الشخصيات المهمة التي لها دور كبير في العلاقات بين مصر والهند لاسيما السلاطين، والتجار، والعلماء وغيرهم ومن أبرز هذه المصادر (أنباء الغمر بأبناء العمر) لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) و (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) للمؤرخ محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) إذ ضم المصدران الكثير من السير والتراجم للشخصيات ذات الصلة بالبحث ومن الطبيعي أن مثل هذه المصادر لا تغفل ذكر الأحداث المهمة والإنجازات الحضارية عند ذكرها واستعراضها لسير الشخصيات.

أما المراجع فهي الأخرى قد أغنت البحث بما حوته من آراء وتحليلات مهمة، ويقع في مقدمتها مرجع أساسي يتعلق بتاريخ الهند وهو (تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية) للمؤرخ محمد اسماعيل الندوي، أحد مؤرخي الأسرة الندوية الهندية المشهورة في الهند إذ دونّ فيه عمق الصلات بين مصر والهند في المجالات السياسية والتجارية والثقافية والفكرية وغيرها كما وتمت الاستفادة من مرجع أخر يتعلق بتاريخ الهند الثقافي وهو (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) للمؤرخ الهندي عبد الحي الحسني إذ تعرض المؤلف لحال الثقافية الإسلامية في الهند منذ دخول الإسلام وحتى العصور الحديثة. أما ما يتعلق

بتاريخ مصر فأبرز كتاب يصادفنا هو (الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والعسكري والاقتصادي) لانطوان خليل ضومط إذ توافرت فيه تحليلات عامة عن طبيعة الأوضاع كافة في دولة المماليك. كما استفاد البحث من عدد من دراسات المستشرقين المتعلقة بتاريخ مصر والهند، ومن بينها (Egypt in the Middle Age) للمستشرق (Lane Poole) إذ استعرض سيرة القاهرة والمدن المصرية الأخرى طيلة العصور الوسطى وركز على الجوانب السياسية فيها وكذلك كتاب (A mediterranean Society) للمستشرق S.D. Goitein حيث سلط الضوء على الجوانب الاقتصادية والتجارية وما يتعلق بتجارة الكارم من خلال استقرائه لوثائق الجنيزة القاهرية. كما ولم يغفل البحث من الاستفادة من الرسائل الجامعية التي تناولت عددًا من المواضيع ذات الصلة بالبحث ومن بينها (مظاهر الثقافية العربية الإسلامية في الهند) للدكتور حسين علي الطحطوح حيث غطت العديد من الثغرات المتعلقة بالنواحي الثقافية. كما وكان للدوريات وما تضمنته من بحوث ومقالات علمية أثرها وأهميتها الواضحة في عدد من جوانب البحث ومن بينها مجلة (ثقافة الهند) و (المجلة التاريخية المصرية) وغيرهما.

وقد بادر الباحث (وبسبب من طبيعة الحصار المفروض على قطرنا) بمراسلة عدد غير قليل من المكتبات والمؤسسات والجامعات والمتخصصين من العرب والأجانب في مصر والهند، والأردن وتونس، والمغرب وبريطانيا والولايات المتحدة وغيرها بهدف الحصول على ما يمكن أن يفيد البحث ويعززه كما هو الحال في ردود مجموعة من المراسلات المثمرة، أما أغلب تلك المراسلات فلم تلب أجوبتها طموح الباحث أو أنها لم تجب أساسًا على المراسلة كما حصل بخصوص مصر والهند.

اخيرًا يشرفني القول ان هذا الكتاب هو في الاصل رسالة ماجستير اعدت في جامعة الموصل سنة ٢٠٠٠م باشراف أ.د حسين علي الطحطوح ونالت تقدير امتياز ، وابتغيت وراء نشرها إبرازًا لعدد من الجوانب المتعلقة

بالحضارة العربية الإسلامية ودور العرب الرائد فيها، وامنياتي أن يسد هذا البحث جزءًا بما تحتاجه المكتبة العربية في هذا الجانب.

والله ولي التوفيق

د. ياسر المشهداني – الموصل

الفصل الأول
الخلفية التاريخية
للعلاقات المصرية الهندية

الموقع الجغرافي والحدود :

مصر [1] : تقع مصر في الجزء الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا وتنقسم طبيعيًا على قسمين : مصر السفلى وهي الدلتا ومصر العليا وهي بلاد الصعيد ويحدها من جهة الغرب الصحراء الغربية، ومن جهة الشرق البحر الأحمر (القلزم)، ومن الشمال بحر الشام (البحر المتوسط)، أما من جهة الجنوب فيحدها السودان الأفريقي (بلاد النوبة) [2].

ولم تكن هذه الحدود لتمثل الرقعة الجغرافية التي امتدت فيها مصر فقد أدت المتغيرات السياسية والاقتصادية دورًا في شكل الحدود المصرية على مدى مدة طويلة من الزمن[3].

الهند[4]: "بلاد العجائب واسعة المساحة كثيرة الجبال والأنهار والصحاري، حباها الله بوفرة منتجاتها الزراعية وغناها بالموارد الطبيعية برها

---

(١) كان اسمها قبل الطوفان (جزلة)، ثم سميت بمصر على اسم مصر بن مركابيل بن دوابيل بن عريام بن آدم ﷺ، وهو مصر الأول . ينظر : تقي الدين احمد بن علي المقريزي : الخطط المقريزية، دار صادر، دار بيروت (بيروت – لات)، ج١ ، ص٢٨.

(٢) أبو اسحق إبراهيم بن محمد الاصطخري : المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العالي، دار القلم (القاهرة – ١٩٦١)، ص٣٩ ؛ غرس الدين بن خليل الظاهري : زبدة كشف الممالك وبين الطرق والمسالك، تحقيق بولص راويس، المطبعة الجمهورية (باريس – ١٨٩٤)، ص٣٣.

(٣) ينظر الخارطة رقم (١)، ص١٢١.

(٤) الهند والسند يقال أنهما كانا أخوين من ولد توقير بن يقطن بن حام بن نوح ﷺ وهم أهل ملل مختلفة وديانات وطوائف متعددة. ينظر : زكريا بن محمد بن محمود القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر (بيروت – ١٩٦٠)، ص٢٢٧. وفي بحثنا هنا

وبحرها" [١]. يحد الهند من جهة الغرب بحر العرب، ومن جهة الشرق خليج البنغال، ومن جهة الشمال جبال الهمالايا، ومن جهة الجنوب المحيط الهندي. ومما يلحظ عليها أن المياه تحيط بها من ثلاث جهات[٢]. والواقع أن نظرة عابرة على الخارطة الهندية[٣] توضح أنها مقسمة على ثلاثة أقسام رئيسة هي : إقليم الجزرات من جهة الغرب، وإقليم المنيبار وهو شرقي الجزرات، وإقليم المعبر[٤].

ولم تكن بلاد الهند ومنتوجاتها وصناعاتها غريبة عن العرب، فقد عرفها التجار العرب قبل الإسلام واتخذوا عددًا من أسمائها اسمًا لنسائهم كما ضمت معاجم اللغة العربية أسماء الكثير من تلك المنتجات وأماكنها[٥].

وهكذا فقد أدى الموقع الجغرافي لكل من مصر والهند الدور الأكبر في العلاقة بينهما، فمصر كانت همزة الوصل بين القارات الثلاث (أسيا وأفريقيا وأوربا) وهي مطلة على بحرين مهمين مما جعلها تقع على اسهل الطرق المؤدية إلى الهند من أفريقيا[٦]، فكانت "فرضة الدنيا تتجه إليها الأسفار وتنطلق منها الرحال ويحمل خيرها إلى ما دونها، فساحلها الشرقي الطويل من مدينة القلزم (السويس) تحمل منه البضائع إلى الحرمين الشريفين واليمن وعُمان

نقصد بالهند شبه القارة الهندية الحالية وليس كما ذهب الجغرافيين والرحالة العرب المسلمون في العصور الوسطى من أن الهند تمتد إلى العديد من جزر المحيط الهندي.

(١) أبو الريحان محمد البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبعة دار المعارف العثمانية (حيدر آباد – ١٩٥٨)، ص٣٥٧.

(٢) عائدة بشارة : مشاهدات سائحة في الهند، مجلة ثقافة الهند، ع٢، أبريل (دلهي – ١٩٦١)، ص٤٣.

(٣) ينظر الخارطة رقم (٢)، ص١٢٢.

(٤) عماد الدين اسماعيل بن محمد أبو الفدا : تقويم البلدان، دار المطبعة السلطانية (باريس – ١٨٤٠)، ص٣٤٥.

(٥) السيد محمد يوسف : بدء العلاقات العلمية بين العرب والهند، مجلة كلية الآداب، ع١٢، مايو، ١٩٥٠، القاهرة، ص٩٧.

(٦) انطوان خليل ضومط : الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والعسكري والاقتصادي، ط١، دار الحداثة (بيروت – ١٩٨٠) ص١٨١.

والهند والصين..."[1] وكذلك الهند التي تقع على ساحل المحيط الهندي الطويل وبحر العرب الأمر الذي مكنها من إقامة العديد من الموانئ التجارية.

** ** **

(١) المقريزي : الخطط، ج١، ص٢٨.

المبحث الأول

العلاقات المصرية الهندية

قبل الإسلام

تعود صلات العرب بعامة ومصر بخاصة بالهند إلى فترات موغلة في القدم، إذ جرى اتصال وتحاور مباشر بين سكان الحضارات القديمة الناشئة في وادي النيل ووادي السند، فعندما كان المصريون القدماء في وادي النيل يقيمون أهراماتهم قبل ميلاد السيد المسيح بثلاثة آلاف سنة نشأت في شبه القارة الهندية حضارات مزدهرة مثل: موهنجودارو(Mohenjo-daro) وحارابا (Harappa)[١].

وكان للأنهار وضفافها دور لا غنى عنه في حياة الشعوب وعلاقتها ببعضها البعض[٢] فلا يخفى علينا وجود نهر النيل في مصر والذي يجري من ناحية الجنوب إلى الشمال[٣] وهو نهر عظيم جلب الرخاء لمصر على مر عهودها الطويلة، فضلاً عن وجود نهر الجانجا في الهند والذي يصب في اتجاه الجنوب الغربي من أرض كشمير حيث تتبع منه خمسة روافد رئيسة هي : جيلم Jhelum ، شناب Chenab ، رافي Ravi ، بياس Beas ، ستلج Sutlej،

---

(١) كانت هذه الحضارات أصيلة أثناء عهد الأسرة الثالثة وحتى عهد الأسرة السادسة في مصر القديمة للفترة (٢٣٠٠-٢٧٠٠ ق.م) ينظر : احمد محمود الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، دار الثقافة (القاهرة – ١٩٧٢)، ص٢٦؛ Manship White : Ancient Egypt, (London–1970), P., 190.

(٢) جمال مناع علي : بين النيل والجانجا، مجلة ثقافة الهند، ع٣، م١٩، يوليو، ١٩٦٣، ص٤١.

(٣) أبو بكر احمد بن محمد بن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل (ليدن – ١٨٨٤)، ص٦٣؛ الأسعد بن مماتي : قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر (القاهرة – ١٩٤٣)، ص٧٣.

فيسمى نهر البنج آب وعلى ضفاف هذا النهر قامت حضارة الهند العريقة[١]. وكلما ذكر الناس النيل ذكروا مصر وكذلك نهر الجانجا الذي يرتبط بالذهن عند ذكر الهند[٢].

وعلى وفق ذلك التماثل فقد قامت بين حضارتيهما علاقات تجارية وثقافية واجتماعية وطيدة منذ أقدم العصور، فمصر كانت بلدًا تجاريًا معروفًا بصناعاته المتنوعة والمتعددة[٣]، والهند التي عرفت بإنتاجها للمواد الطبيعية الوفيرة إذ قصدها التجار العرب بعدما أدركوا أرباحها[٤].

أهم الأدلة على علاقات البلدين قديمًا :-

إن من أبرز الأدلة التاريخية على قدم العلاقة بين مصر والهند ما ورد في عدد من الكتب السماوية، ففي الجانب التجاري جاء في التوراة (العهد القديم) بأن التجار كانوا يترددون إلى مصر منذ ألفي سنة قبل الميلاد وكانوا يحملون معهم دهن البلسان، والصنوبر ومواد أخرى ذات رائحة عطرية جلبوها أصلاً من بلاد الهند[٥]. وفي الإنجيل (العهد الجديد) الشيء الكثير عن التوابل الهندية واستخدامها في مصر. وفي القرآن الكريم الذي وردت فيه قصة النبي يوسف عليه السلام الذي التقى في مصر مع مجموعة من التجار الذين كانوا يحملون معهم التوابل الهندية فضلاً عن مواد أخرى متعددة لبيعها في عاصمة فرعون[٦]. كما اعترف التاريخ الإغريقي بأن العرب ظلّوا مسيطرين على التجارة مع الهند منذ

---

(١) سراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مطبعة عثمان أفندي (القاهرة–١٨٦٣)، ص٢٥ ؛ محمد اسماعيل الندوي : الهند القديمة، حضارتها وأديانها، مطبعة دار الشعب (بغداد – ١٩٧٠)، ص١٣،١١.

(٢) علي : المقال السابق، ص٤١.

(٣) شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل (ليدن – ١٩٠٩)، ص٣٥.

(٤) ابن الفقيه : المصدر السابق، ص١٥.

(٥) سليمان الندوي : شهادة التوراة على قدم التجارة العربية الهندية، مجلة ثقافة الهند، ع٢، م١، يوليو، ١٩٥٠، ص٢٢٠.

(٦) سونيا بن هاو: في طلب التوابل، تحقيق محمد عزيز رفعت، مكتبة النهضة (القاهرة – ١٩٥٧)، ص٢٩.

أيام النبي يوسف ﷺ وحتى أيام الرحالة ماركو بولو(١)، وحتى عندما انتقلت التجارة من أيدي العرب إلى اليونانيين والرومان في القرن الثالث قبل الميلاد فإنها لم تنتقل مباشرة بل مرت السفن التجارية من سواحل الهند إلى سبأ باليمن ومنها إلى مصر(٢).

أما المواد التجارية فقد تنوعت وتعددت تبعًا لحاجة كل بلد لها، فقد كانت الهند تستورد من مصر عددًا من المصنوعات الفخارية والأواني الحجرية التي كانت مصر تتميز في صناعتها إذ وجدت هذه المصنوعات في موهنجودارو وغيرها من المواقع الأثرية في الهند. في حين كانت مصر تستورد من الهند مجموعة من المنسوجات التي استخدمها المصريون في لف موتاهم من الفراعنة(٣). فضلاً عن استيرادهم عددًا من الأحجار الكريمة مثل الزمرد والمرجان وحجر الدهنج الذي كان يرد مصر بكثرة لصناعة الخواتيم(٤).

أما ما يتعلق بنظام التعامل التجاري قديمًا فكان أساسه المقايضة إذ كان التجار يضعون بضائعهم في الموانئ الهندية على الساحل ويعودون أطرافهم فإذا أصبحوا جاءوا إلى بضائعهم فيجدون إلى جانب كل بضاعة شيئًا من التوابل والعطور والمواد الهندية الأخرى فان رضيه صاحب البضاعة أخذه وانصرف

---

(١) S.Nadavi : The Indo – Arab Relation Commercial, I.C. April, 1933, P., 281.

(٢) كانت تجارة مصر قديمًا تسلك ثلاث طرق رئيسة هي : طريق الشمال ويتجه من أواسط آسيا نحو بحر قزوين والبحر الأسود والبسفور والدردنيل. وطريق الوسط ويأتي من الهند برًا وبحرًا إلى سليوكيا على نهر دجلة ثم يتجه إلى دمشق وانطاكيا. وطريق الجنوب وهو طريق بحري من الهند إلى موانئ بلاد العرب. ينظر: محمد اسماعيل الندوي : تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، دار الفتح (بيروت – لات)، ص٢٧؛ تارشند : الثقافة الإسلامية ووصول المسلمين الهند، مجلة ثقافة الهند، ع١، مارس، ١٩٥٠، ص٢١.

(٣) مجموعة مؤلفين : تاريخ الحضارة المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة – لات)، ج١، ص٤٨٧ ؛ فيصل السامر : الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، ط١، دار الشؤون الثقافية، (بغداد – ١٩٨٦)، ص٧٩.

(٤) علي البصري : رحلة التاجر السيرافي، دار الحديث، (بغداد – ١٩٦١)، ص١٠٧.

وإن لم يرض به ترك البضاعتين وعاد في اليوم الثاني فيجد التاجر الآخر قد زيد في بضاعته وهكذا يتم التوافق والتراضي(١)، وهذا ما أطلق عليه (المبادلة الصامتة)، فضلاً عن ذلك فقد استخدم المصريون في بعض الأوقات قطعًا نقدية من الذهب والنحاس تسمى (دين) كوساطة للتبادل التجاري(٢).

وفيما عدا التجارة يجد الباحث أن الزراعة كانت عماد الحياة الاقتصادية لدى سكان الحضارتين فقد كانوا يزرعون الحبوب الغذائية والأشجار على ضفاف الأنهار ويربون المواشي والأغنام ويستغلون المعادن كل الاستغلال لصنع أدوات كثيرة ومهمة(٣). وقد انتقلت العديد من المزروعات من الهند إلى مصر وعدد من البلاد العربية الأخرى واستمرت زراعتها لفترات طويلة(٤). ففي عهد الأسرة السابعة والعشرين (٦٢٥-٦٠٥ ق.م) وصلت مجموعة من أكاليل الزهور وعدد من المزروعات الهندية التي زينت الحدائق المصرية(٥).

كما انتشرت زراعة الرز وقصب السكر في الهند وانتقلت زراعتهما من الهند إلى الواحات المصرية في الفيوم حتى القرن الثامن الميلادي(٦).

لم تتأثر الهند وحدها بحضارة المصريين بل تأثر بها عددًا من بلدان البحر المتوسط (بحر الشام) وأفريقيا وأسيا، فمن أوجه التشابه بين الحضارتين عبادة قوى الطبيعة وعدد من الحيوانات حتى غدت كثير من الأشياء في الحياة معبودة ومقدسة فتعددت الآلهة وتمثلت بأشجار وأبطال تجسد فيها الإله، ومعادن

---

(١) ابن الوردي : المصدر السابق، ص١٢٧.

(٢) طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، شركة التجارة للطباعة والنشر، (بغداد – ١٩٥٦)، ج٢، ص١٨١.

(٣) الندوي : الهند القديمة، ص٢٩.

(٤) أبو الحسين علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس (بيروت – لات)، ج١، ص٩٨.

(٥)Margaret A. Murray : The Splendour that was Egypt, (London – 1963), P., 222.

(٦) موريس لومبارد : الإسلام في عظمته الأولى، ترجمة ياسين الحافظ، ط١، دار الطليعة، (بيروت – ١٩٧٧)، ص١٤٨،١٤٦.

وأنهار[١] وحيوانات مختلفة قدست بشكل كبير لاسيما البقرة التي عرفت في الديانة الهندوسية[٢] بقدسيتها وتحريم ذبحها وعدم إيلامها[٣]، ففي أحكامهم "من ذبحَ بقرة ذُبِحَ بها"[٤]. أما في مصر القديمة فقد عبد الناس الثعبان اتقاءًا للدغته المميتة[٥] وكان إله الشمس عند المصريين (رع) وعند الهنود الإله (سوريا Sourya) كما وقدست زهرة اللوتس في البلدين[٦]. وكانت الأصنام معلمًا أخر من معالم الديانة في البلدين فقد صنع المصريون الصور والتماثيل للتعبير عن تصوراتهم في عبادة الآلهة فجمعوا بين الإنسان والحيوان عند تصويرهم الآلهة بصورة تتفق وواقعيته فصّورا الشمس بصورة إنسان برأس صغير[٧].

أما الهنود فكانوا يتوارثون عبادة أصنام قديمة منذ آلاف السنين[٨]، وبالرغم من سذاجة العبادات والمعتقدات القديمة للبلدين إلا أن عددًا منها قد تجلت فيها صفات إيجابية مثل منح الحياة وجلب الخصوبة ... فقد عبد وا قوى

---

(١) احمد شلبي : مقارنة الأديان، ط٣، مكتبة النهضة، (القاهرة – ١٩٦٧)، ج٣، ص٤٤.

(٢) الهندوسية : هي دين الغالبية في الهند وليس لها مؤسس واحد يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها، ولكنها ديانة حداد تجمع بين الوثنية الساذجة والآراء الفلسفية السامية والزهد، وقد دخلت الهندوسية أرض الهند مع الآريين الذين نزحوا من الأقاليم الغربية حوالي سنة (١٥٠٠ ق.م). ينظر : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : الملل والنِحل، دار المعرفة، (بيروت – ١٩٧٥)، ج٢، ص٩–١٠.

(٣) غريغوريوس أبي الفرج هارون بن العبري : تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت – ١٨٩٠)، ص٧.

(٤) أبو علي احمد بن عمر بن رسته : الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، (ليدن – ١٨٩١)، ص١٣٥.

(٥) الندوي : تاريخ الصلات، ص٢١.

(٦) نازك حمدي : الفن والثقافة عند الهنود والمصريين، مجلة صوت الشرق، ع٩٩، (القاهرة – ١٩٦٠)، ص٣١.

(٧) مجموعة مؤلفين : المرجع السابق، ج١، ص٢٠٨–٢٠٩.

(٨) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ط١، المطبعة الحسينية، (القاهرة – لات)، ج١، ص٩٥.

الطبيعة اعتقادًا منهم لاجتناب الضرر وجلب المنفعة[1] وقد اتصفت طوائف متعددة في مجموعة من الممالك الهندية في قندهار وقمار بالزهد والمكافئة على عمل الخير والإحسان وترك الرذائل والمعاقبة لمن يقترفها[2] بل واشتهر بعضهم بحبهم للعرب والمسلمين فيما بعد[3]. إن كل ذلك يوحي بقوة العلاقة والرابطة بين البلدين في النواحي الدينية كما تشابهت عدد من الآلهة والصور التي في المعابد، والأشعار، والقرابين الدينية في المدن والعابد المصرية والهندية القديمة على حد سواء[4].

فضلاً عن ذلك نجد الكثير من هذه العقائد في الناحية الثقافية قد انتشرت من مصر صاحبة الحضارة العريقة إلى شعوب أسيا لاسيما الهند، فالفن المصري كان موضع إلهام الشعوب التي كانت على صلة تاريخية بمصر ويتضح للباحث في الأعمال الفنية والآثار أن هناك صلات وثيقة ربطت سكان البلدين منذ عصور ما قبل التاريخ، فمثلاً كان الفن في البلدين أداء للحياة نفسها في أبسط صورها كما كان نوعًا من الطقوس الدينية التي يمارسها الناس كل يوم[5]. كما انتقلت مراسيم الدفن والإيمان بمسألة الحياة بعد الموت من المصريين إلى الهنود فقد عُثر في حضارة حارابا على آثار تدل على أنهم كانوا يدفنون مع موتاهم الأشياء الضرورية للحياة كما فعل المصريون من قبلهم في عصر الفراعنة[6].

---

(١) الندوي : الهند القديمة، ص٤٦.

(٢) ابن رسته : المصدر السابق، ص١٣٣.

(٣) بزرك بن شهريار الرامهرمزي : عجائب الهند بره وبحره وجزائره، ط١، مطبعة السعادة، (القاهرة – ١٩٠٨)، ص١١٨.

(٤) Murray : OP. Cit., P., 222.

ولعل أبرز مدينة عبد فيها إله الشمس (رع) في مصر القديمة هي هيليوبوليس Heliopolis وتبعد ١٠ كم شمال شرقي القاهرة وتجسد فيها إله الشمس بهيئة ثور أسود. ينظر :

Nasiri Zaroubi : Egypt as History, Vantage Press (U.S.A – 1977). P., 16.

(٥) Zaroubi : Ibid, P., 60.

(٦) البيروني : المصدر السابق، ص٣٨،٤٠.

ان ذلك يدل على أن عادة حرق جثث الموتى التي اتخذها الهنود لم يكن لها وجود عميق في تلك المدة[١] وإنها تأثرت بتقاليد الحضارة المصرية. من جهة أخرى فقد ساد الاعتقاد بالعرّافة والسحر في البلدين من أجل طرد الأرواح الشريرة، ففي مجال الطب استخدمت في مصر القديمة العقاقير الطبية مع مجموعة من الطلاسم السحرية في حالات خاصة لاعتقادهم أن الأرواح الشريرة قد مست شخص المريض ووجب عليهم طردها[٢].

أما من الناحية السياسية والاجتماعية فقد كانت مصر مقسمة إلى أقاليم ومقاطعات خاضعة لنفوذ الإله الذي كان يُعبد فيها وكان هذا الإله مسيطرًا على البلاد كلها[٣] وكان المجتمع مقسمًا على عدة طبقات منها : الطبقة العليا المؤلفة من رجال الدين (الكهنة) والنبلاء والأشراف وبيدهم مقاليد الأمور والثروة، ثم الطبقة الوسطى وهم الصنّاع والعمال والفلاحون، ثم طبقة الأرقاء الذين تكون الحروب الخارجية مصدرًا لجلبهم[٤]. أما في الهند فقد ظهر نظام الطبقات بأبشع صوره إذ قُسم المجتمع على أربعة أقسام هي : البراهمة والشاكبيرية وهم الأشراف ورجال الدين[٥]، والكشترية وهم رجال الحرب والسيف، والسودية أو البيشية وهم الصنّاع والزرّاع أصحاب المهن، وأخيرًا طبقة الشودرية وهم طبقة الخدم والعبيد[٦] ومن ذلك نلحظ تشابه التقسيم الاجتماعي في البلدين.

فقد كانت العلاقات السياسية بين ملوك الهند من جهة وملوك مصر من جهة أخرى في فترة حكم البطالمة لمصر (٣٢٣-٣٠ ق.م) اكثر توثقًا من ذي قبل، إذ تم بينها تبادل السفراء فعندما بدأ الاسكندر المقدوني حملاته في الجزء

---

(١) الندوي : الهند القديمة، ص٤٧-٤٨.

(٢) Zaroubi : OP. Cit., P., 60.

(٣) الندوي : تاريخ الصلات، ص٢٤.

(٤) باقر ، المرجع السابق، ج٢، ص١٧٢.

(٥) شرف الدين طاهر المروزي : أبواب في الصين والترك والهند، منتخبة من كتاب طبائع الحيوان، (لندن – ١٩٤٢)، ص٢٦.

(٦) المروزي : المصدر نفسه، ص٢٧ ؛ البيروني : المصدر السابق، ص١٦ ؛ شلبي : مقارنة الأديان، ج٣، ص٤٥.

الشمالي الغربي من آسيا الصغرى، ثم زحف نحو الهند وأبحر جنوبًا في نهر السند ولكنه لم يستطع التوغل في قلب الهند، بل فتح جزءًا صغيرًا منها هو بلوجستان (المنطقة الجبلية التي تقع في باكستان الغربية) وذلك لأن إمبراطور الهند الكبير (جندر كبت موريا) كان أقوى محارب شاهده الاسكندر إذ صمدت قواته بوجه جيوش الاسكندر فوقفت زحفه نحو الهند، فعاد الاسكندر إلى بابل تاركًا أحد قادته وهو (سلوكس) نائبًا عنه في بلوجستان وقد حاول سلوكس أن يغزو البنجاب سنة ٣٠٥ ق.م لكن الإمبراطور جندر كبت موريا حاربه وهزمه حتى كاد أن يطرده لولا أن سلوكس مدّ يده إلى الإمبراطور الهندي طالبًا منه العفو والبقاء على شرط أن يزوجه بنت سلوكس، وبهذا بدأت العلاقات السياسية بين مصر والهند في ذلك العصر على أساس من المودة والقرابة وبدأ تبادل السفارات بينهما[١].

فضلاً عن كل ذلك فقد كان هناك تجاوب عميق في مجال الفكر والثقافة بين الحضارتين ساعدت التجارة على بلورته مما أدى إلى خلق تمازج فكري وصلات اجتماعية تحتمها طبيعة العمل التجاري بين أفراد المجتمع المصري والمجتمع الهندي على حد سواء، ولاشك أن هناك عملية تكافؤ وموازنة أدت إلى تطوير كل العلاقات التجارية تلك[٢] فلولا معرفة الهند طريق مصر من التجارة المتبادلة بينهما لما تمكن أشوكا[٣] من إرسال بعثة كبيرة إلى مصر في معبد بطليموس يدعو أهلها باعتناق الديانة البوذية[٤] ولما قامت مستوطنة هندية في

(١) الندوي : تاريخ الصلات، ص٢٦.

(٢) حسين علي الطحطوح : مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في الهند، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، (الموصل – ١٩٧٩)، ص١٨.

(٣) هو الحاكم الذي أنجز شوطًا طويلاً من حضارة الإمبراطورية الهندية الأولى في القـرن الثالث قبل الميلاد وقام بنشر تعاليم بوذا في كل بلاد الهند. ينظر : هان اميلي : الهنـد، ترجمة عفاف محمد فؤاد، دار المعارف، (القاهرة – ١٩٦٤)، ص١٩.

(٤) Murray : OP. Cit., P., 222.

الإسكندرية في بداية القرن الأول للميلاد[١] ولما انتقلت كذلك القصص والروايات المصرية القديمة إلى الأدب الهندي وبالعكس[٢].

** ** **

---

(١) السامر : المرجع السابق، ص٧٩.

(٢) الندوي : تاريخ الصلات، ص٢٨ ؛ ولعل أبرز الروايات والقصص الهندية التي تناقلت عبر العصور هي الفيدا وهي مجموعة من الكتب المقدسة الأربعة في الديانة الهندوسية القديمة التي استمد منها الهنود عقائدهم والتي يرجع أقدمها إلى ٤٥٠٠ ق.م ، وهي : ركفيدا ، سام فيدا وهما يشتملان على مجموعة الأناشيد التي تؤدى عند تقديم القرابين للآلهة ، ثم يكرفيدا ويشتمل على الصلوات والأدعية ، وأتهرفيدا وهو آخرها ويشتمل على التعاويذ والرقي ، ينظر : الشهرستاني : المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٠ ؛ أميلي، المرجع السابق ، ص١٦.

المبحث الثاني
العلاقات المصرية الهندية
في ظل الإسلام

دخلت العلاقات المصرية الهندية في ظل الإسلام عهدًا جديدًا إذ تطورت فيه علاقاتها السابقة واغتنت حتى نمت وأصبحت علاقات دينية وثقافية وروحية.

أولاً : مصر :-

عند ظهور الدين الإسلامي في الربع الأول من القرن السابع للميلاد كانت مصر تعيش المرحلة الأخيرة من مراحل حكم الروم البيزنطيين لها فحررها العرب المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ سنة ١٩هـ/٦٤٠م بقيادة القائد عمرو بن العاص حينما تغلب على المقوقس (صاحب مصر) وتمكن من الدخول إلى مدينة الفسطاط وجعلها مقرًا له ومعسكرًا لجيشه[١] ثم تواصلت الإدارة العربية الإسلامية لمصر بشكل مباشر بوصفها جزءًا من الدولة العربية الإسلامية وذلك طيلة العصر الأموي (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م) والعصر العباسي لها (١٣٢-٢٥٤هـ/٧٤٩-٨٦٨م) ثم خضعت لحكم الطولونيين[٢] والأخشيديين[٣] واستمر ذلك لغاية سنة (٣٥٨هـ/٩٦٨م) عندما استولى

---

(١) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، مطبعة بريل (ليدن- ١٩٣٠)، ص٥٥.

(٢) هي أسرة تركية حكمت مصر ٣٨ سنة (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٧-٩٠٥م) وكانت فترة ازدهار ورخاء لمصر بخاصة تحت حكم أحمد بن طولون. ينظر : احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، دار المعارف، (القاهرة - ١٩٦٩)، ج١، ص١٢٧.

(٣) هي أسرة تركية أسسها محمد بن طغج الأخشيد وكانت أخر الدول الإقليمية في مصر في ظل العباسيين حكمت ٣٥ سنة (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٤-٩٦٩م). ينظر : سليمان : المرجع نفسه، ج١، ص١٢٩.

الفاطميون[1] عليها ونشروا دعوتهم فيها خلال حكمهم الطويل لها والذي انتهى بقيام الدولة الأيوبية[2] التي تحملت عبء مقاومة الغزوات الصليبية على مصر والشام وزالت بدخول المماليك مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.

ثانيًا : الهند :-

سبق أن أشرنا إلى معرفة العرب بالهند منذ فترات سحيقة قبل ظهور الإسلام، وعندما جاء الإسلام استمرت هذه الصلة فتعرف الهنود على الدين الجديد من خلال عوامل عديدة منها: التجارة لأنها تعد من أقدم مظاهر الصلات ونظرًا لما عرف به التاجر المسلم من أخلاق حميدة ومصداقية في التعامل إذ أصبح داعية للإسلام فضلاً عن عمله التجاري ولاشك أن هذا العامل يتعلق بطبيعة العمل التجاري ومتطلباته وهذا ما كان يدركه التاجر العربي المسلم فهو بقدر ما يهمه عمله التجاري كان يهمه أيضًا حسن المعاملة والعلاقة الودية مع الأهليين والتي تمكنه من التغلغل في الوسط الاجتماعي الجديد[3] وقد أفادت الصلات التجارية بين التجار المسلمين والهنود في تعرفهم على ملامح الدين الجديد وأركانه ومبادئه[4]. ومن جانب أخر فقد بدء التفكير في فتح الهند مبكرًا

---

(١) هي أسرة إسلامية استندت في سياستها على الخلافة والإمامة فادعت أنها من سلالة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ وولد علي ﷺ واستولت على مصر بقيادة جوهر الصقلي قائد الجيوش الفاطمية وانتشرت دعوتهم ونالت ظفرها السياسي في مصر والمغرب. ينظر : سليمان : المرجع نفسه، ج١، ص١٣٢-١٣٦.

(٢) نسبة إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي التحق وعمه أسد الدين شيركوه في خدمة السلطان نور الدين زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م) حاكم الموصل الذي كان يبعثهما إلى مصر لقمع الثورات. وجاء صلاح الدين إلى مصر لأول مرة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م وقد عين الخليفة العاضد أخر الخلفاء الفاطميين في مصر شيركوه وزيرًا مكافأة له، فلما توفي شيركوه تولى صلاح الدين مكانه حتى وفاة العاضد وعندها حكم صلاح الدين مصر. ينظر : سليمان : المرجع نفسه، ج١، ص١٣٩.

(٣) الطحطوح : المرجع السابق، ص٤١.

(٤) لقد قامت علاقات طيبة بين التجار العرب المسلمين وبين الحكام والأمراء الهنود الذين منحوهم الحماية والرعاية وأضفوا عليهم الامتيازات بسبب ما ناله هؤلاء الحكام من فوائد اقتصادية ترتبت على هذه التجارة النشطة التي أنعشت بلادهم، وكان لاستقرار

من القادة العرب المسلمين بهدف نشر الإسلام فيها، فقد بشر الرسول محمد ﷺ في عدد من أحاديثه بفتح الهند قائلاً "عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار، عصابة تغزو الهند وعصابة تكون مع عيسى بن مريم عليهما السلام"(١).

وقد انتبه بعض الخلفاء الراشدون والأمويون على حد سواء إلى أهمية تلك البلاد السياسية والاقتصادية وأهمية نشر الإسلام فيها فأرسلوا عددًا من البعوث الاستكشافية لغرض توثيق معلوماتهم عن الهند قبل إمكانية فتحها فتحًا مباشرًا وجمع المعلومات عن جغرافية ومسالك تلك المناطق وطبيعتها فوصفها بعضهم على أنها أرض كثيرة الخير والموارد والمعادن "فبأرضها شجر العود وببحرها الدّر وبجبلها الياقوت"(٢). وقد تسنى للعرب المسلمين فتح السند في العهد الأموي في حكم الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) عندما كلف عامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بإعداد حملة عسكرية لفتح السند فأرسل الحجاج بدوره أحد قادته وهو محمد بن القاسم الثقفي للقضاء على القرصنة وفتح السند، وتمكنت الحملة من تحقيق أهدافها سنة ٩٥هـ/٧١٣م(٣) وبعد الفتح العربي الإسلامي للسند بدأت العلاقة تنمو تدريجيًا بين المجتمع الهندي والمجتمع العربي الإسلامي إذ أن العرب المسلمون كانوا يعيشون في بادئ الأمر بمعزل عن الهندوس بسبب الاختلاف الكبير في العقيدة والتقاليد وكان العرب المسلمون يدركون أنهم بين أناس لا تربطهم بهم أية صلة(٤) فوجد الإسلام نفسه أمام عدد من الأديان

هؤلاء التجار دوره في نشر العقيدة الإسلامية في الهند. ينظر : السامر : المرجع السابق، ص٤٤.

(١) عن أحاديث غزو الهند : ينظر : أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي : سنن النسائي، ط١، مطبعة مصطفى الحلبي، (القاهرة – ١٩٦٤)، ج٦، ص٣٥.

(٢) أبي القاسم عبد الله بن خرداذبة : مسالك الممالك، مطبعة بريل (ليدن – ١٨٨٩)، ص٧٠ ؛ ابن الوردي : خريدة العجائب، ص٢٣١.

(٣) عن عملية فتح السند وأسبابها بسبب من نشر الإسلام بوصفه عاملاً مباشرًا في ذلك. ينظر : احمد بن يحيى بن جابر البلاذري : فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب، (بيروت – ١٩٧٨)، ص٤٢٠-٤٢١.

(٤) محمد مرسي أبو الليل : الهند في العصور الوسطى، (القاهرة – لات)، ص١٢٦.

الوضعية والتقاليد الغربية، غير أن المسلمين تمكنوا من تحدي الظروف وإقامة مجتمع إسلامي عظيم كما فعلوا في مصر وشمال أفريقيا وغيرها من المناطق[١] وبمرور الزمن اختلط العرب المسلمون بالهندوس وتعرفوا على أخلاقهم وأثروا كثيرًا في عاداتهم وتقاليدهم[٢] فدخل الكثير منهم الإسلام عن طواعية.

ولا شك أن سياسة التسامح الديني والمعاملة الحسنة التي اتبعها الفاتحون العرب المسلمون في الهند من تطبيقهم لمبادئ الإسلام وشعائره جعلت الهنود يتأثرون بتعاليم هذا الدين ويسارعون إلى الدخول فيه[٣].

ثم تواصلت التبعية السياسية والدينية تقام باسم الخليفة الذي كان يخطب له في مساجد السند الإسلامية كالملتان[٤] والمنصورة[٥] وغيرها. وتواصلت الإدارة العربية الإسلامية للسند بقية العصر الأموي ومن ثم خضعت للنفوذ العباسي حتى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م عندما تمكن الفاطميون من إرسال دعاتهم ومد نفوذهم إلى بعضها وفي تلك الآونة ظهرت إلى الوجود السلطنة الغزنوية[٦] التي توسعت بحدودها نحو الهند فكان الفتح الأكثر شمولية وتنظيمًا على عهد

---

(١) شاخت وبوزورث : تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السمهودي، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت – ١٩٧٨)، ج١، ص١٩٥.

(٢) أبو الليل : المرجع السابق، ص١٢٦.

(٣) الطحطوح : المرجع السابق، ص٣٨.

(٤) هي مدينة كبيرة في السند كانت من أهم المدن التي فتحها العرب المسلمون وكان في معابدها ذهب كبير فسميت بفرج بيت الذهب. ينظر : الاصطخري : المصدر السابق، ص١٠٢-١٠٣ ؛ المقدسي : المصدر السابق، ص٤٨٥.

(٥) هي إحدى مدن السند وهي مدينة إسلامية فيها مساجد كثيرة وتسمياتها عديدة منها أنها فتحت في عهد الخليفة المنصور، أو أن الذي فتحها قال نُصرنا. ينظر : أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٣٥٩.

(٦) قامت على أنقاض الإمارة السامانية في خراسان على يد سبكتكين بن البتكين، وغزنة مدينة واسعة وكبيرة تقع في أوائل الهند من جهة خراسان ومؤسس هذه الأسرة تركي الأصل وكان وثنيًا وأسر في أحد الحروب القبلية وبيع في الأراضي السامانية فأسلم. ينظر : القزويني : المصدر السابق، ص٤٢٨ ؛ شاخت وبوزورث : المرجع السابق، ج١، ص١٨١.

السلطان محمود الغزنوي حيث تمكن من الانتصار على ملوك الراجبوت الهنود[١] ونشر الإسلام في أقاليم متعددة من الهند سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م[٢] حتى دخل تحت سلطته الكثير من ملوك الهند وهادنوه على الخضوع والطاعة[٣] فكان مثالاً كبيرًا للقادة الفاتحين الذين تمكنوا من نشر تعاليم الإسلام وأحكامه في الهند[٤] ثم استطاع السلطان شهاب الدين محمد الغوري مؤسس الدولة الغورية[٥] من التوسع في الهند على حساب الدولة الغزنوية وتمكن من إخضاع عدد كبير من مدنها المهمة لاسيما مدينة أكرا Agra ومدينة كوالير Kawaler وقلعة بهنكر وأسر العديد من ملوكهم وغنم من أموالهم[٦] كما استطاع فتح مدينة دلهي[٧] أكبر مدن الهند سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م وبنى مساجد وعمارات متعددة

---

(١) هم حكام الهند الوثنيون بدأوا حكمهم في بداية القرن السابع للميلاد / الأول للهجرة وسيطروا على الجزء الشمالي والجنوبي من الهند. ينظر : أميلي : المرجع السابق، ص٢٠.

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان، نقله إلى العربية أسحق رملة، قدم له جان موريس فييه، دار المشرق، (بيروت – ١٩٨٦)، ص٧٩ ؛ غوستاف لوبون : حضارات الهند، تحقيق عادل زعيتر (نابلس – ١٩٤٥)، ص٢٢٢ ؛ الطحطوح : المرجع السابق، ص٥٤.

(٣) يقال أن عادة قطع الإصبع كانت من الأدلة على الخضوع والطاعة لدى ملوك الهند، وكان أمراء الأقاليم في الهند يقطعون أصابعهم ويقدمونها إلى السلطان محمود الغزنوي. ويذكر أنه كان لدى السلطان محمود من أصابع من هادنه الكثير. ينظر : ابن العبري : تاريخ الزمان، ص٨٢ ؛ آدم ميتز : الحضارة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكاتب العربي، (بيروت – ١٩٦٧)، ج٢، ص٢٩.

(٤) J.L. Nehru : Discovery of India, (London – 1956), P., 335.

(٥) الدولة الغورية نسبة إلى غور مدينة بين هرات وغزنة من أقاليم ما وراء النهر أنشأها سنة ٥٨٤-٦٠٢هـ/١١٨٦-١٢٠٥م. ينظر : الندوي : تاريخ الصلات، ص١٣٦.

(٦) عز الدين بن الأثير : الكامل في التاريخ، المطبعة الكبرى، (القاهرة – ١٩٦٧)، ج١٢، ص١٢٠ ؛ أبو الفدا : المختصر ... ج٣، ص٢٤.

(٧) دلهي أو دهلي Delhi مدينة كبيرة الساحة كثيرة العمارة يمر بها نهر كبير وغالب أهلها مسلمون وتقع وسط الهند. ينظر : أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٣٥٩ ؛ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن بطوطة : رحلة ابن بطوطة، دار صادر، (بيروت – ١٩٦٤)، ص٤١٥.

وعندما تعاظم نفوذه اجتمع عليه عدد من ملوك الهند الوثنيين واغتالوه وهو ساجد يصلي[١] وكان قبل وفاته قد أقطع أحد مماليكه وأمرائه حكم مدينة دلهي[٢] فأنشأ فيها أسرة تحكم باسم المماليك، ويعد مؤسسها قطب الدين أيبك من أبرز وأشهر ملوكها (٦٠٢-٦٠٧هـ/١٢٠٦-١٢١٠م) إذ أنشأ فيها منارًا عظيمًا (منار قطب) ارتفاعه ٧٢,٥م والذي يناهز ارتفاع منار الإسكندرية في مصر[٣].

وفي حين استمرت العلاقات التجارية قائمة بين مصر والهند في العصور العربية الإسلامية كافة التي تلت الفتح، نقلت العديد من المواد التجارية والبضائع المتنوعة الهندية على يد التجار المصريين القادمين إلى مدنها، وتنوعت هذه المواد ما بين مواد عطرية وتوابل فضلاً عن السيوف والأخشاب والأحجار الكريمة[٤] وان أول اتصال سياسي بينهما بعد الإسلام كان قد جرى في العصر الفاطمي، إذ كانت الدعوة الفاطمية تنتشر سرًا في أنحاء شتى من البلاد الإسلامية لاسيما الهند، فكانت مدينة الملتان مركزًا لاستقبال الدعاة الفاطميين[٥] ففي عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م) بلغت الدعوة الفاطمية أوج قوتها ونشاطها فانتشرت في المغرب ومصر واليمن والجزيرة العربية وفاقت الخلافة العباسية أحيانًا قوة ونفوذًا، فكون العزيز بالله جيشًا قويًا لتوسيع نفوذه نحو السند بقيادة جلم بن شيبان إلى الملتان فدخلها دون أية مقاومة فكان أول حاكم فاطمي عليها بعد أن انفصلت عن الخلافة العباسية وباتت الخطب تحمل اسم الخليفة الفاطمي[٦] ولكن ذلك الاتصال ما لبث أن انقطع بعد دخول محمود الغزنوي الهند ففتح الملتان وقضى على الدعوة

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٢، ص٢١٢-٢١٣.

(٢) أبو الفدا : المختصر ... ج٣، ص٢٥-٢٦.

(٣) الظاهري : المصدر السابق، ص٤١ ؛ مادو بالا : التراث الهندي والعالمي، مجلة آفاق الهند، يوليو، (نيودلهي – ١٩٩٥)، ص٣٧.

(٤) ابن الفقيه : المصدر السابق، ص٦.

(٥) عبد الرحمن بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في ذكر أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، (بيروت – لات)، ج٤، ص٣١.

(٦) المقدسي : المصدر السابق، ص٤٨٥ ؛ الندوي : تاريخ الصلات، ص٥٨-٥٩.

الفاطمية فيها، غير أن الفاطميون لم ييأسوا لهذه الهزيمة فركزوا جهودهم على مدينة المنصورة التي كان يحكها أسرة (بنو هباري) ويخطبون فيها للخليفة العباسي[1] وتمكنوا من السيطرة عليها ونشر دعوتهم فيها سنة ٤١٦هـ/٩٩١م وظلت تحت سيطرتهم لغاية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٦م عندما دخلها السلطان شهاب الدين الغوري. وعلى الرغم من تعرض بعض جهات الهند لتهديدات الدولة الخوارزمية المتوسعة في ما وراء النهر[2] إلا أن ذلك لم يؤثر كثيرًا على علاقات الهند ومصر وإنما أصبحت واسعة النطاق وتجري على أكمل وجه ففي الجانب التجاري يذكر المقريزي "أن سلع الهند كانت متوافرة بأسواق القاهرة والإسكندرية بشكل كبير على عهد الملك الكامل ناصر الدين الأيوبي (٦١٥-٦٣٥هـ/١٢١٨-١٢٣٨م) الذي كان يكرم الوافدين إلى بلاطه بهدايا نفيسة من الهند"[3].

فضلاً عن ذلك فقد استمرت العلاقات السياسية قائمة فكانت الوفود والسفارات تصل إلى القاهرة وتتمتع برعاية الملوك الأيوبيين في مصر وبخاصة بلاط الملك الكامل الذي اجتمع عنده في يوم واحد عدد كبير من ملوك الأطراف ومن بينهم ملك الهند[4]. كما بدأت بوادر النهضة الفكرية والثقافية في البلدين من خلال بروز العديد من المثقفين والعلماء الذين رفعوا من شأن الثقافة العربية الإسلامية إذ توافد على القاهرة ودلهي أعداد كثيرة من العلماء من شتى أنحاء البلاد العربية الإسلامية مثل العراق والشام وما وراء النهر وما إلى ذلك وقد رحب بهم سلاطين مصر والهند مما يدل على المنزلة الرفيعة والمكانة الكريمة التي أنزلها سلاطين البلدين للعلماء والمثقفين في العالم الإسلامي. ولعل أبرز الشخصيات الثقافية التي كان لها أكبر الأثر في النشاط العلمي والأدبي في الهند هو : رضي الدين الحسن بن محمد الصاغاني الذي ولد بمدينة لاهور سنة

---

(١) ابن العبري : تاريخ الزمان، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٦.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة – ١٩٥٨)، ج١، ق١، ص٢٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ق١، ص٢٤٣.

٥٥٧هـ/١١٦١م وتلقى علومه في أماكن عديدة من العالم الإسلامي وشهد عصر الغزنويين والغوريين وثم عصر المماليك في الهند ودرس على يده العديد من طلاب العلم الذين نالوا حضوة كبرى وشهرة في ديارهم ومنهم الحافظ الدمياطي الذي كان إمامًا في الفقه والحديث واللغة. ألف الصاغاني مصنفات عديدة في الفقه والحديث واللغة ومنها : مجمع البحرين، العباب الزاخر، وكتاب الأضداد وغيرها، وتوفي سنة ٦٥٠هـ/١٢٤٤م[١] فضلاً عن الكثير من العلماء والمؤرخين الذين وفدوا إلى الهند وكتبوا عنها[٢]. ومن ناحية أخرى فقد تطورت العلاقة بين أفراد المجتمع الهندي والإسلامي في تلك المدة فقد اضطر العرب المسلمون إلى استخدام الهنود في الجيش والأعمال والإدارة ومنحوهم الوظائف وألفوا الحماية التي شملت التسامح الديني والعدالة[٣].

وبهذا كان العصر العربي الإسلامي في الهند أول نواة لغرس بذور الحركة الفكرية العربية الإسلامية وبداية مهمة للعلاقات السياسية والتجارية والثقافية بين مصر والهند والتي ازدهرت في المدة اللاحقة وقد نالت الهند مكانة كبرى في ظل الثقافة العربية الإسلامية وسجلت لها دورًا قياديًا في هذا المضمار حتى بلغت ذروة ما بلغته من إنتاج فكري وعلمي عربي إسلامي آنذاك[٤].

□□□ □□□

---

(١) شمس الدين الذهبي : تاريخ الإسلام، مخطوطة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب، جامعة بغداد، برقم ١٦٦١، ج٣، ص٣٢١.

(٢) ومنهم مثلاً البيروني (٣٦٢-٤٤٠هـ/٩٧٢-١٠٤٨م) الذي تبحر بالعلوم الإسلامية وبقي في الهند أكثر من أربعين سنة وتعلم خلالها تقاليد الهنود وفنونهم فوضع كتابًا مهمًا هو (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة). ينظر : ابن العبري : مختصر تاريخ الدول، ص٣٢٤-٣٢٥.

(٣) بعد الفتح العربي الإسلامي الأول للهند وكل محمد بن القاسم الثقفي الأمور الإدارية للهنود نائبين عنه وكانت سياسة الحكومة العليا خيرًا مما جرت به التقاليد المحلية. ينظر : عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام في الهند، دار العهد الجديد، (القاهرة – ١٩٥٩)، ص٧٦.

(٤) الندوي : تاريخ الصلات، ص٧٣.

الفصل الثاني
العلاقات السياسية والعسكرية

المبحث الأول
الأسر الحاكمة
وظروفها السياسية

أولاً : مصر – دولة المماليك[1] :-

يعود الفضل في إنشاء دولة المماليك إلى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٨-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) أخر من تولى حكم مصر من الأيوبيين الذي أكثر خلال حكمه من شراء الرقيق المختلفي الأصول والطوائف فأعزهم وجعل لهم مكانة عالية في دولته بخاصة أولئك الذين ساعدوه في الوصول إلى الحكم، فعزلهم عن العامة وأسكنهم في قلعة الروضة[2] المطلة على النيل

---

(١) المملوك في اللغة هو العبد وأصلها ملك، ويقال عبد مملكه إذا ملك ولم يملك أبواه ويبدو أن الاسم قد أخذ من القرآن الكريم إذ وردت فيه آيات كقوله تعالى : ﴿ **وما ملكت أيمانكم** ﴾ وغيرها أكثر من مرة. ينظر: القرآن الكريم : سورة الأحزاب، آية (٥).
والكلمة اصطلاحًا تعني الرقيق وتستخدم للدلالة على جنود عسكريين ظهروا في أجزاء متعددة من العالم العربي الإسلامي بخاصة في مصر فإذا قارناهم بغيرهم من الأقليات فسنجد أنهم امتحنوا في ظروف كثيرة مرَّ بها العالم العربي الإسلامي فقد أفادوا الإسلام كثيرًا. ينظر :-

- P.M. Holt "Mamluk" El2, Vol. 6, P., 314.

(٢) لها تسميات أخرى مثل قلعة المقياس، وقلعة الجزيرة، وقلعة الصالحية، عمل فيها الصالح أيوب ستين برجًا وبنى فيها جامعًا وأسكن فيها نحو ألف مملوك. ينظر : المقريزي : الخطط، ج٢، ص١٨٣.

وسماهم (البحرية) [١] ليجعل لهم مكانة مستقلة وميزة خاصة وعيّن عددًا منهم في الأمور الإدارية فبرز منهم من يمتلك الصفات القيادية أو يطمح لزعامة، فأعتق منهم الكثير[٢] وقد وصفهم ابن حسول بقوله "ومن الواضح أن هؤلاء الأجناس من المماليك لا يرضون بالعبودية وحياة الذل كغيرهم بخاصة إذا خرجوا من وثاقهم وأصبحوا أحرارًا فعندها سيكون لهم قدر جليل وكِبرٌ ظاهر"[٣] وهذا ما أثبته هؤلاء المماليك فيما بعد. وفي حين كانت الخلافة العباسية تلفظ أنفاسها الأخيرة في بغداد أيام حكم الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م) كان المماليك في مصر يعدون أنفسهم لتزعم العالم الإسلامي بخاصة بعد تبنيهم جانب المقاومة الجهادية للغزوات الصليبية تجاه مصر والشام. كما عاشت مصر ظروفًا داخلية صعبة مكنت حملة القائد الفرنسي لويس التاسع من دخول مدينة دمياط واحتلالها سنة ٦٤٨هـ/١٢٤٩م.

وقد اشتد المرض على الملك الصالح أيوب وحُمِل إلى قلعة المنصورة إذ توفي فيها وبدأت زوجته شجرة الدَّر[٤] تدير المعارك وتصدر الأوامر باسم زوجها بعد أن أخفت نبأ وفاته، غير أن نبأ الوفاة سرعان ما وصل إلى لويس

---

(١) تعددت تسميات المماليك تبعًا للسلاطين الذين اشتروهم منهم العزيزية نسبة إلى السلطان العزيز ومنهم الصالحية نسبة إلى السلطان الصالح نجم الدين. ولقب البحرية نسبة إلى بحر النيل الذي تقع في جزيرة الروضة. وقيل أن السبب في تسميتهم لأنهم كانوا يجلبون عن طريق البحر بواسطة تجار الرقيق. ينظر: ابن خلدون : المصدر السابق، ج٥، ص٣٧٣ ؛ علي مبارك باشا : الخطط التوفيقية، مطبعة بولاق، (القاهرة – ١٨٨٧)، ج١، ص٢٩.

(٢) جمال الدين أبي المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب، (القاهرة – ١٩١٨)، ج١٦، ص٣٦٤.

(٣) أبي العلاء بن حسول : تفضيل الأتراك على سائر الأجناد، (بغداد – لات)، ص٤٢.

(٤) هي امرأة أرمنية كانت على قدر كبير من الجمال والذكاء وكان لها دور مهم في انتقال السلطة من الأيوبيين إلى المماليك. أرسلها الخليفة المستعصم بالله العباسي من بغداد إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب في القاهرة فتزوجها وولدت له ابنه خليل عنده وسميت (عصمة الدين أم خليل) فتوطدت مكانتها. ينظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ...، ج٦، ص٣٧٣ ؛ Holt OP. Cit., P., 321.

التاسع الذي استغل تلك الظروف واقتحم مدينة المنصورة واستولى عليها. لكن المماليك استطاعوا أن يبددوا أحلام الصليبيين ويطردوهم من المدينة سنة ٦٤٩هـ/١٢٥٠م[١] ومن ثم استدعت شجرة الدّر ابن زوجها الملك تورانشاه الذي كان حاكمًا على حصن كيفا[٢] والذي كان يكره المماليك ويدّعي أنهم يزاحمونه في ملكه، فأنكر وقفتهم المشرفة في طرد الصليبيين واتهم شجرة الدّر بأنها أخفت ثروة أبيه عنه مما جملها على الانتقام منه فدبرت عملية لمقتله بمساعدة المماليك فقتلوه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م[٣] وسيطرت شجرة الدّر على الحكم حتى عدّها مجموعة من المؤرخين أول من ملك مصر من السلاطين المماليك[٤].

وهكذا حكم المماليك مصر، ولم يختلطوا بأهلها ولم يسمحوا لأي منهم بالانخراط في صفوفهم بل ظلوا معزولين بجنسيتهم وعاداتهم[٥] فلا غرابة أن تظهر الثورات والحركات من قبل عرب مصر وساكنيها رافضة حكم المماليك (الغرباء) لهم فبدأت حركة المقاومة سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م من مجموعة المصريين في مناطق الصعيد ومنفلوط وأسيوط وغيرها من المدن إذ عدّوا أنفسهم أحق من المماليك بحكم مصر، غير أن المماليك تمكنوا من قمعهم

---

(١) المقريزي : السلوك ...، ج١، ق١، ص٣٥٦ ؛ أبو الفتح محمد بن عبد المعطي الإسحاقي : أخبار الأُول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول، مطبعة الحلبي، (القاهرة – ١٨٩٢)، ص١٢٥.

(٢) يقع في الجزيرة الفراتية بين آمد وديار بكر. ينظر : شهاب الدين عبد الله ياقوت الحموي : معجم البلدان، دار صادر، (بيروت – ١٩٦٥)، م٢، ص٢٦٥.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٥، ص٨٠٧ ؛ الإسحاقي : المصدر السابق، ص١٢٦.

(٤) عندما استنكر العالم العربي الإسلامي حكم شجرة الدّر لمصر لكونها امرأة، عزمت على الزواج من عز الدين أيبك أحد الأمراء من المماليك البحرية وتنازلت له عن الحكم. ينظر : المقريزي : السلوك ...، ج١، ق١، ص٣٦١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ...، ج٦، ص٣٧٣.

(٥) محي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، تحقيق مراد كامل، ط١، (القاهرة – ١٩٦١)، ص٣٦.

وإخضاعهم بعد مواجهات عديدة حتى هدأت حركتهم[١]. وقد حكم المماليك مصر حكمًا عسكريًا قائمًا على الشريعة الإسلامية[٢] كما طبقوا نظام الإدارة المركزية التي كان مقرها في (القلعة) في القاهرة وكان السلطان يعدّ الحاكم السياسي والإداري والعسكري في آن واحد وكان النظام الإداري يتكون من أمراء وموظفين فيهم الكتاب ونظراء الدواوين فضلاً عن ولاة الأقاليم وحكام الثغور والموانئ، وهؤلاء جميعهم مسؤولون أمام السلطان وينفذون الأوامر الصادرة إليهم كلّ بحسب ولايته[٣] والجدير بالذكر أنه لم يكن الخليفة العباسي في مصر من الأمر سوى الخطبة باسمه على المنابر ونقش سكة البلاد باسمه وما عدا ذلك فكانت خلافة صورية[٤]. وما أن تسلّم المماليك السلطة حتى وقع عليهم عبء ثقيل تمثل في مواجهة الخطر المغولي إذ سقطت بلاد الشام مدينة تلو الأخرى بيدهم وصلوا إلى حدود مصر فتصدى لهم المصريون بقيادة المماليك ومنعوا من خطرهم في معركة عين جالوت[٥].

---

(١) المقريزي : البيان والإعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، ط١، عالم الكتب، (القاهرة – ١٩٦١)، ص١٠ ؛ السلوك ...، ج١، ق٢، ص٣٨٦.

(٢) محمد أبو زهرة : ابن تيمية حياته، عصره، آرائه وفقهه، ط٢، دار الكتب، (القاهرة – ١٩٥٨)، ص١٤٢.

(٣) حسن إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية وعهد الناصر بوجه خاص، ط١، (القاهرة – ١٩٤٨)، ص٢٧٤.

(٤) بعد غزو المغول لبغداد جاء إلى مصر أحد العباسيين وهو المستنصر بالله هاربًا من بغداد فاجتمع أعيان الدولة بهدف التأكد من صحة نسبه فبويع بالخلافة سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م وذلك في عهد الملك الظاهر بيبرس. ينظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ...، ج٧، ص١٠٩-١١٠.

(٥) هي معركة دارت بين جيوش المماليك بقيادة الظاهر بيبرس وبين جيوش المغول انتصر فيها المماليك سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م، ينظر : أبو الفدا : المختصر...، ج٣، ص٢٠٥ ؛ مبارك باشا : المرجع السابق، ج١، ص٢٧.

كما أفشل المماليك مخططات الصليبيين التوسعية جميعها والرامية إلى إعادة السيطرة على مناطق من مصر وبلاد الشام(١)، وبهذا تميز المماليك عن غيرهم من السلاطين بعلو همتهم وتبنيهم المواقف الجهادية(٢). لقد برز في هذه الدولة (المماليك البحرية) (٣) ثلاثة سلاطين أدوا دورًا بارزًا في إدارة سياستها الداخلية والخارجية، وأولهم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري(٤) (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) وكان إداريًا حازمًا دأب على ترقية شؤون بلاده وتنمية مواردها كما نظم الإدارة الحكومية واستعان في إدارة شؤون بلاده بالأمراء المقربين إليه فولاهم أرقى المناصب، كما وجه عنايته إلى إعداد جيش قوي يكون عدة له وقت الحروب والأزمات(٥). والسلطان الآخر هو المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي(٦) (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) الذي أكثر من عمران القاهرة وبنى المساجد والمدارس والبيمارستانات وحصر السلطة بعده بأولاده والذين كان أبرزهم الناصر محمد بن قلاوون الذي حكم ثلاث فترات كان أطولها (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) إذ ورث صفات أبيه من عزم وحلم، فكانت فترات حكمه كلها هادئة وكان مهتمًا بالمشروعات العامة ومیالاً للسيطرة والنفوذ والعلاقات الخارجية(٧).

---

(١) أبو الفدا : المختصر ....، ج٣، ص٢٠٧.

(٢) ابن حسول : المصدر السابق، ص٤٢.

(٣) ينظر : الملحق رقم (١-آ)، ص١١٥.

(٤) الظاهر بيبرس Baybars أحد الأمراء من المماليك البحرية والبندقداري تعني حامل كيس البندق خلف السلطان. ينظر : مبارك باشا : المرجع السابق، ج١، ص٢٩.

(٥) المقريزي : السلوك ....، ج١، ق٣، ص٩٦٩ ؛ حسن : دراسات ....، ص٥١.

(٦) سمي بالألفي لأنه بيع بألف دينار، ينظر : كمال الدين ابي الفضل عبد الرزاق بن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، مطبعة الفرات، (بغداد – ١٩٣٢)، ص٣٩٤.

(٧) حسن : دراسات ....، ص٦٦.

وجاء السلاطين من بعدهم على درجة من الضعف مما فسح المجال لعدد من فئة (المماليك الجراكسة) للتمرد وتأسيس دولة لهم سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م[١] وقامت على أسس تخالف الأسس التي قامت عليها الدولة الأولى (البحرية) وان اشتركت معها في بعض الاتجاهات، فقد اتخذ سلاطين هذه الدولة التماسك سلاحًا لإزالة الدولة الأولى ثم استمر هذا التماسك إطارًا عامًا لسياستهم الداخلية. وعلى الرغم من عدم امتلاكهم الخبرة والكفاءة في الإدارة فقد كانوا يتباهون في بناء القصور والمساجد حتى قيل فيهم :

قومٌ إذا أقبلوا كانوا ملائكة لطفًا وإن قوتلوا كانوا عفاريت[٢]

ولكن سرعان ما دّب الضعف فيهم فأهملوا البلاد ومالوا إلى الترف والاحتكار وتعرضوا إلى أزمات خارجية كالخطر البرتغالي ٩٠٥هـ/١٤٩٨م ثم التوسع العثماني على حسابهم. وكان أول سلاطين هذه الدولة الظاهر برقوق[٣] (٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٢-١٣٩٨م) الذي قضى على فكرة وراثة الحكم في دولة قلاوون. ومن سلاطين هذه الدولة أيضًا السلطان برسباي Barsbay (٨٢٥-٨٤٢هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) الذي تميز عهده بسياسة الاحتكارات التجارية، ثم السلطان قانصوه الغوري صاحب المباني العمرانية في مصر.

وبهذا حكم المماليك مصر لمدة تقرب الثلاث قرون وبواقع دولتين وتنوعت في حكمهم أساليب الإدارة والنظم والسياسة وبرزت من بينهم شخصيات لامعة أسهمت في ازدهار حضارة مصر وعمرانها. كما امتد حكمهم

---

(١) يرجع تأسيس هذه الفئة إلى السلطان المنصور قلاوون حين عزم على تكوين فرقة جديدة من المماليك ليعتمد عليهم في حكمه فأسكنهم بالقلعة وسماهم (البرجية) وهم خليط من الأرمن والجركس. ينظر : المقريزي : السلوك ...، ج١، ق٣، ص٧٥٦ ؛ الملحق رقم (١-ب)، ص١١٦.

(٢) الإسحاقي : المصدر السابق، ص١٣٣.

(٣) هو برقوق بن أنس الجركسي، جلب إلى القاهرة واشتراه أحد الأمراء ثم أعتقه ثم صار من الأمراء المعدودين حتى تمكن من السلطة بعد خلع السلطان حاجي بن قلاوون. ينظر : مبارك باشا : المرجع السابق، ج١، ص٤١.

نحو الجزيرة العربية وبلاد الشام وحرصوا على ضم الحجاز وبسطوا نفوذهم السياسي والديني عليه وسيطروا على ساحل البحر الأحمر من أجل تأمين مرور السفن التجارية إلى مصر(١). وهكذا امتد نفوذها بين المشرق والمغرب العربي الإسلامي من جهة وبين قارة أفريقيا من جهة أخرى.

وارتبطت دولة المماليك بعلاقات ودية مع الدول المعاصرة لها في العالم العربي الإسلامي لاسيما مع دولة بني حفص في تونس (٦٢٥-٩٨٢هـ/١٢٢٨-١٥٧٤م) ودولة بني مرين بفاس والمغرب (٥٩٢-٩٥٦هـ/١١٩٦-١٥٤٩م) كما ارتبطت بعلاقات مماثلة مع عدد من دول أوربا بخاصة تلك الواقعة على حوض البحر المتوسط إذ كانت مصر أهم دولة بحرية في عالم العصور الوسطى الإسلامية فأقامت علاقات تجارية واسعة مع الممالك الإيطالية في جنوة والبندقية والممالك الإسبانية في أرغون وغرناطة وغيرها(٢).

وبذلك نستدل على توسع علاقات المماليك مع عدد من الدول ونفوذهم المتزايد إذ كانت ظروفهم الداخلية تسمح بإقامة وتنظيم العلاقات على الصعيد الخارجي فعلى الرغم من أن النظام السياسي في مصر لم يكن بأيدي المصريين أنفسهم إلا أن ذلك لم يمنع من أن تتهيأ مصر لاستقبال مراحل مهمة اقتصادية(٣) وذلك في إطار علاقاتها مع الهند.

ثانيًا : الهند - سلطنة دلهي :-

ظهرت في الهند خمس أسر إسلامية تعاقبت على سلطنة دلهي(٤) خلال المدة (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) وكانت أولها أسرة المماليك التركية الأصل التي سبقت مماليك مصر بالحكم بستة وأربعين سنة وقد استمرت في

---

(١) توفيق سلطان اليوزبكي : تاريخ تجارة مصر البحرية في العهد المماليكي، دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل - ١٩٧٥)، ص٣٥.

(٢) ضومط : المرجع السابق، ص٢٢٨.

(٣) احمد إبراهيم عبد منصور : النظام الاقتصادي والاجتماعي في مصر المملوكية مع إشارة خاصة لفكر المقريزي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإدارة والاقتصاد (جامعة الموصل - ١٩٩٦)، ص٨٣.

(٤) ينظر الملحق رقم (٢)، ص١١٧.

الحكم للمدة (٦٠٢-٦٨٦هـ/١٢٠٦-١٢٨٨م) وكان قيامها يمثل محاولة تطبيق مبادئ الإسلام السامية في الهند وإقامة مجتمع إسلامي يسوده العدل والمساواة[١] ما لبثت أن ضعفت وتلاشى عهدها ليبدأ عهد الأسرة الخلجية Khilji [٢] التي أنشأها السلطان جلال الدين الخلجي وكان الخلجيون محاربين من الدرجة الأولى ودافعوا عن الإسلام ضد المغول في الأقاليم الشمالية الغربية من الهند وبرزت منهم شخصيات عديدة أسهمت في نشر مبادئ الإسلام من خلال فتح مناطق جديدة[٣] .

وبسبب تمادي آخر سلاطين الأسرة الخلجية وهو ناصر الدين خسروشاه وسوء تصرفاته التي أغضبت أشراف دلهي استنجدوا بحاكم إقليم لاهور السلطان غياث الدين تغلق شاه الذي أسس أسرة جديدة في دلهي هي أسرة التغلقيين Tughluq (٧٢٠-٨١٣هـ/١٣٢١-١٤١٣م) [٤] وكان بين التغلقيين وبين مماليك مصر والخلافة العباسية فيها علاقات متينة اتخذت أشكالاً ومظاهر عديدة. وبعد أن وصلت هذه الأسرة إلى ما وصلت إليه من عظمة وشأن بخاصة في عهد السلطان محمد تغلق (٧٢٥-٧٥٢هـ/١٣٢٤-١٣٤١م) كان لابد لها أن تتقلص وتتفكك عراها وتنحل أواصرها خاصة بعد أن هيأت الاختلافات والفتن الداخلية التي كان يحيكها الطامعون والموتورون. كما أن الشدة التي استخدمها التغلقيون تجاه الولاة والإداريين كانت سبب الانفجار الذي أدى إلى عهد اللامركزية[٥] .

---

(١) الساداتي : المرجع السابق، ص١٢٢ ؛-

- M. Mujeeb : The Indian Muslims, (London–1967), P., 32.

(٢) الخلجيون قبيلة تركية الأصل لكنها ابتعدت عن الأتراك واستوطنت البلاد الأفغانية وحكمت في دلهي للمدة (٦٨٦-٧٢٠هـ/١٢٨٨-١٣٢٠م). ينظر : إحسان حقي : تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية، ط١، مؤسسة الرسالة، (بيروت – ١٩٧٨)، ص٨٨-٨٩.

(٣) S.F. Mahmud : The Story of Islam, (London – 1965), P., 157.

(٤) النمر : المرجع السابق، ص١٢٥ ؛ كما تمت الاستعانة بالمعلومات التي أرسلتها مؤسسة شومان بريديًا (عمّان – ١٩٩٩).

(٥) حقي : المرجع السابق، ص١١٥.

فقد قامت أسرة أخرى في دلهي هي أسرة السيد Sayyid (٨١٣-٨٥٥هـ/١٤١٠-١٤٥١م) التي أسسها خضر خان السيد الذي يروى أنه ساعد تيمورلنك وقدم له العون أثناء غارته على الهند فتقلص في عهد هذه الأسرة نفوذ سلطنة دلهي واستقل عنها عدد من الأقاليم حتى بدا الضعف فيها[١] ليبدأ عهد الأسرة الخامسة في دلهي وهم اللوديين Lodhi (٨٥٥-٩٣٢هـ/١٤٥١-١٥٢٦م) [٢] ومثل حكمهم بداية لضعف الحكم الإسلامي في الهند فظهر من سلاطينها من لقب نفسه بالخليفة، وهناك من استقل بسك العملة باسمه دون اعتراف بالخليفة العباسي في القاهرة. وهكذا ضعفت التأثيرات الإسلامية في دلهي على عهد هذه الأسرة مما سهل وقوع البلاد فريسة سهلة للتيموريين والمغول. لذلك سنلاحظ أن عصر التغلقيين كان العصر الأبرز في العلاقات السياسية مع دولة المماليك في مصر[٣].

وكنتيجة لتلك الظروف ظهرت سلطنات أخرى في أنحاء مختلفة من الهند قامت على حساب ضعف سلطنة دلهي وكانت مستقلة استقلالاً تامًا أو شبه تام عن المركز والواقع أن انفصال هذه السلطنات إنما كان بسبب التشدد والتعسف تجاه الولاة والإداريين بخاصة فيما يتعلق بجباية الضرائب، فلم تعد سلطنة دلهي تلك السلطنة التي تستطيع أن تفرض إرادتها على أحد بل غدت سلطنة من السلطنات الكثيرة التي ظهرت في الهند، ولربما كانت مهددة أكثر من غيرها لاعتبارات معنوية تتعلق بأهميتها السابقة. وكانت من نتائج ذلك القضاء على قوة الهند المادية والمعنوية[٤] تدريجيًا وبروز دور السلطنات الناشئة وصلاتها المباشرة وغير المباشرة مع دولة المماليك في مصر، ولعل أبرزها سلطنة

---

(١) النمر : المرجع السابق، ص١٤٨ ؛ الندوي : تاريخ الصلات، ص١٣٩.

(٢) هي أسرة أفغانية أسسها بهلول اللودي وكانت سابقًا تحكم في لاهور، واللودي تعني العظيم، ينظر :

A. Taussaint : A History of Indian Ocean (London – 1966), P., 68.

(٣) Maqbul Ahmed : The Indo-Arab Relation (Newdelhi – 1978), P., 75.

(٤) حقي : المرجع السابق، ص١٢٦،١١٧.

البنغال (٧٣٧-٩٨٤هـ/١٣٣٦-١٥٧٦م) [١] وسلطنة كشمير (٧٤٧-٩٩٧هـ/١٣٤٦-١٥٨٨م) [٢] وسلطنة كوجرات (٧٩٣-٩٩١هـ/١٣٩٠-١٥٨٣م)[٣] وسلطنة مالوا (٨٠٤-٩٣٧هـ/١٤٠١-١٥٣٠م)[٤] وسلطنة الدكن (٧٤٨-٩٣٤هـ/١٣٤٧-١٥٢٧م)[٥] وأخيرًا سلطنة قانديش في جنوبي الهند للمدة (٧٧٢-١٠٠٩هـ/١٣٧٠-١٦١٠م)[٦]. والجدير بالذكر أن تلك السلطنات المنفصلة وإن كانت قد أضعفت الهند من الناحية السياسية والعسكرية إلا أنها قد أفادتها في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إذ شرع كل أمير من أمراء هذه الأقاليم بالأعمال العمرانية بما يستطيع التباهي به أمام زملائه ويفاخرهم ليظهر أمامهم بمظهر القوي. فضلاً عن ذلك فقد كانت لهذه السلطنات علاقات وثيقة بمصر لاسيما سلطنة الكوجرات التي أدت دورًا كبيرًا في العلاقات التجارية ولمدة طويلة[٧]. وبهذا تكون الظروف الداخلية قد سمحت للهند

---

(١) هي إحدى السلطنات الهندية التي نشأت في شمال الهند وأسسها السلطان فخر الدين مبارك شاه. ينظر :-

- C.E. Bosworth : Islamic Dynasties, (Edinburgh – 1967), P., 193.

(٢) هي إحدى الأقاليم الهندية الواقعة في أقصى الشمال الغربي تأسست فيها السلطنة الإسلامية سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م وأسسها السلطان شمس الدين سواتي. ينظر : ابن خرداذبة : المصدر السابق، ص٦٨؛ أبو الليل : المرجع السابق، ص١٢٩.

(٣) كانت تابعة لسلطنة دلهي حتى استقل بها السلطان مظفر شاه الأول سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م وجاء بعده السلطان احمد شاه الأول ووسع قاعدتها وأنشأ مدينة جوارها سماها أحمد آباد وكان أول من اقتحمها من المسلمين السلطان محمود الغزنوي. ينظر : الساداتي : المرجع السابق، ص٢١٠.

(٤) تقع وسط الهند وقد أسس فيها السلطان دلاورخان أسرة إسلامية تنتمي إلى السلطان شهاب الدين الغوري فاتح الهند. ينظر : النمر : المرجع السابق، ص١٦٢.

(٥) نشأت في جنوب الهند على يد السلطان حسن بهمن الذي انفصل عن سلطنة دلهي وأقام أسرة إسلامية واختار مدينة كلبركة عاصمة له وسماها حسن آباد وكانت هذه السلطنة قد ضمت مناطق الجنوب الهندي كله. ينظر : Bosworth : OP. Cit., P., 203.

(٦) الطحطوح : المرجع السابق، ص٧٩ ؛ حقي : المرجع السابق، ص١١٧.

(٧) Bosworth : OP. Cit., P., 203.

أيضًا بالارتباط مباشرة بمصر فضلاً عن الصلة التاريخية بينهما بوصف أنهما بلدان إسلاميان مهمان. كما لم تمنع النزاعات الداخلية والأزمات الاقتصادية وما واجهته كل من مصر والهند من أخطار خارجية من توطيد العلاقات بينهما.

** ** **

المبحث الثاني

مظاهر العلاقات السياسية

اتخذت العلاقات المصرية الهندية في العصر المملوكي تجاوبًا عميقًا، فأول ما ربط البلدين معًا هو الأصل واللقب الواحد لمؤسسي الأسرتين الحاكمتين فيهما (قطب الدين والمعز لدين الله) وهو أيبك[١] فضلاً عن ناحية سياسية أخرى هي مشاركة العنصر النسائي في الحكم لأول مرة في العالم الإسلامي[٢].

وثمة موقف أخر يربط الدولتين في بداية نشأتهما، ذلك الموقف الجهادي الذي تمثل بمقاومة الخطر الصليبي والغزو المغولي إذ كانت أرض البلدين ساحات للمنازلة مع ألد أعداء الإسلام وخصومه[٣]. كما تأثر النظام السياسي القائم في الهند بالنظم العربية الإسلامية لاسيما في مصر، فقد أدخل الفاتحون المسلمون أسسًا تحمل بين طياتها عوامل ازدهار البلدان ورقيها وتقدمها. فكان العصر العربي الإسلامي في الهند حافلاً بالحريات الدينية والمدنية كما كان أمراء الأقاليم يسعون لإعلان استقلالهم وتأسيس الممالك الإسلامية لهم[٤].

ولعل أبرز مظاهر العلاقات السياسية بين مصر والهند هي :

أولاً : السفارات :-

كان لتبؤ مصر تلك المكانة الدولية المميزة والمركز السياسي المرموق له ما يسوغه، إذ أنها أصبحت مركز الخلافة العربية الإسلامية، وهمزة الوصل في

---

(١) إن مؤسسي الأسرتين في الدولتين أتراكًا من بلاد القفجاق الواقعة على نهر الفولغا وأيبك لفظة تركية تتركب من مقطعين، أي وتعني قمر وبك وتعني أمير وتصبح أمير قمر. ينظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة...، ج٧، ص٤ ؛ حسن : تاريخ المماليك ...، ص٣٨.

(٢) حكمت السلطانة رضية في الهند سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م، وتولت شجرة الدّر الحكم في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م. ينظر : الندوي : تاريخ الصلات، ص١٤٢-١٤٣.

(٣) المرجع نفسه، ص١٤٤.

(٤) لوبون : المرجع السابق، ص٤٢٢-٤٢٣.

التجارة بين الشرق والغرب. كما أصبحت دولة عظيمة الشأن واسعة الحدود، وحفاظًا على استقلالها ومصالحها أقامت مع عدد من الدول القريبة والبعيدة وشائج وصلات في أشكال مختلفة، فلم تجد لذلك بدًا من إرسال السفراء إلى ملوك عدد من البلدان ومنها الهند لتكلفهم بمهام ضرورية أو تستقبل سفراءهم وتنظر فيما لديهم من المسائل والأخبار. وقد جرت العادة أن يختار سلطان مصر المملوكي سفيره من العلماء الكيسيين ذوي الأخلاق الرفيعة ويزوده بمعلومات في الموضوع الذي خرج لأجله[١] وكان السفير في الغالب يحمل هدايا قيمة إلى البلد الذي يروم زيارته، ويبدو أن الهدايا كان لها دور في بعض التقاليد الرسمية وكان لها جداول وسجلات تدون وترقم فيها وتحفظ للاطلاع عليها وقت الحاجة، وكان ذلك كله مدعاة لمعرفة مدى التواصل مع دولة من الدول فكان السلاطين يقيمون لها وزنًا خاصًا ويجعلون لها أهمية، ونستدل منها على أمور كثير لها صلة في العلاقات بين مصر والبلاد الأخرى لاسيما الهند[٢].

ويبدو أن الهدية كانت تعبر عن مدى رقي البلد وتقدم حضارته واعتزازه بصناعته الوطنية وبالوقت نفسه للتباهي بخيرات البلد وما تنتجه أرضه من موارد طبيعية، فضلاً عن كونها مظهرًا يعبر عن الود والاحترام القائم بين الدول. وغالبًا ما كانت الهدايا المتبادلة بين سلاطين مصر والهند من عدد من

---

(١) يبدو أن عملية اختيار السفير كانت تخضع لمداولات من قبل السلاطين، فالسفير كان يعبر عن سياسة الدولة وينقل صلات الود والاحترام من حكومته إلى الدولة التي أرسل إليها، فلابد أن يتوافر فيه صفات الصدق والأمانة والاستقامة. فكان مثلاً ملوك الفرس إذا ما وردهم سفير من الهند أو الترك أو الروم أقاموا له الضيافات والمعازف فإن أجاب إلى ذلك طمعوا فيه واطّلعوا على أسراره جميعها وهان عليهم، وإن امتنع نبل قدره عندهم. ينظر : الحسن بن عبد الله : آثار الأول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق، (القاهرة – ١٨٧٨)، ص٩٤.

(٢) سليم : عصر سلاطين المماليك، مطبعة المتوكل (القاهرة – ١٩٤٧)، القسم الثاني، ص٢٦٥،٢٠٩.

المواد النفيسة، ومواد الزينة والبخور، والخيول والجواري وغيرها من المواد الأخرى[١].

وكان السفير يمثل أعلى مراتب البعثة خارج الدولة لكونه ممثلاً عن السلطان، وتميز عن غيره بتمتعه بحصانة واعتماد مباشر من قبل الدولة، وله الحق في مقابلة السلطان متى ما شاء. وحال قيام دولة المماليك البحرية في مصر، كثرت الوفود والسفارات إلى القاهرة لتعلن اعترافها وتقديرها للسلطنة المملوكية القائمة في مصر ومثلما عمل سلاطين اليمن على تقوية صلاتهم بالمماليك وإرسالهم السفارات في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م وسنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م[٢]. فقد بادر سلاطين الهند الإسلامية بإرسال سفاراتهم إلى مماليك مصر تأكيدًا على احترام النظام القائم فيها، مما يدل على مكانة المماليك السياسية. ففي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م وصلت أول سفارة من الهند إلى مصر وهي مؤلفة من سفيرين يمثلان صاحب إقليم كنباية[٣] من بلاد الهند وهما (أمين الدين أبو عثمان والشيخ علي لوكنتي) ومعهما كتاب من سلطان كنباية عبارة عن لوحة من الذهب مكتوبة بخط سلطانهم "حتى تعذر في مصر وجود من يعرّبها"[٤]، وبعد أن رتبت لهم مراسيم الإقامة سئلوا عن مضمون الكتاب فقالوا أنه يتضمن عبارات المحبة والسلام للسلطان، وإن سلطانهم الهندي قد ترك محبة وصحبة سلطان اليمن وتعلق بمحبة سلطان مصر (المنصور قلاوون) ويريد أن يتوجه إليه سفير من مصر من أجل إقامة علاقات مشتركة بينهما، كما تحدث السفيران أمام السلطان عن خيرات الهند وما تحتويه أرضهم من توابل وجواهر

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٦٥.

(٢) المقريزي : السلوك ....، ج١، ق٢، ص٥٩٥.

(٣) هي أحد أحسن أقاليم الهند الشمالية المشهورة في إتقان البناء وعمارة المساجد، وأغلب أهلها وساكنيها من التجار الأجانب. ينظر : ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٥٥٠.

(٤) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات : تاريخ الدول والملوك، المجلد السابع، تحقيق قسطنطين رزيق، المطبعة الأمريكية، (بيروت – ١٩٣٦)، ص٢٦١.

وغيرها[1]، فما كان من السلطان قلاوون إلا أن أكرم السفيرين وأحسن إليهما وبعث معهما جوابًا لائقًا إلى سلطان كنباية[2] مما يدل على سعيه في إقامة علاقات تجارية مع الهند وإدراكه لأهمية العلاقة مع سلطانها.

ومن الواضح أن هذه السفارة كانت فاتحة خير وبداية موفقة لمسيرة العلاقات المصرية الهندية. فقد تعددت أهدافها ما بين أهداف سياسية واقتصادية فضلاً عن محاولة كسب ود مصر ذات الموقع والأهمية في العالم الإسلامي، كما كانت أول استجابة للمرسوم الذي أصدره المنصور قلاوون سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م والذي شجّع فيه الأمم والممالك على القدم إلى مصر ومزاولة التجارة معها[3]. وبعد وفاة المنصور قلاوون سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٠م تولى السلطنة ابنه السلطان صلاحِ الدين خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) [4] الذي كان حسن السيرة متمكنًا من ضبط السياسية والإدارة ومع كل هذا لا توجد إشارة تدل على تواصله بالعلاقات مع الهند، ربما لقصر مدة حكمه البالغة ثلاث سنوات. أما في الهند فقد حكمت أسرة الخلجيين كثاني سلطنة إسلامية في دلهي، والتي لم تكن لها علاقات تذكر مع دولة المماليك في مصر بسبب انشغال سلاطينها في فتح مناطق جديدة ومتعددة من الشمال الهندي وضمها تحت السيادة الإسلامية[5] تلك الفتوحات الواسعة التي بدأت منذ عهد مؤسس هذه الأسرة السلطان جلال الدين الخلجي الذي لُقب بملك الرحمة وكان حاكمًا على البنجاب فوسع حكمه نحو الدكن وما وراء الجبال وتمكن من السيطرة على البلاد[6]. غير أن السلاطين من بعده لم يسيروا على خطاه في الفتح والتوسع مما أدى بهم إلى الضعف حتى انقرضت أسرتهم. وعندما قامت أسرة التغلقيين استطاع مؤسسها

---

(١) احمد بن علي القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب، (بيروت – ١٩٨٧)، ج٨، ص٧٧-٧٩.
(٢) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق، ص٥٢.
(٣) ينظر : الملحق رقم (٣)، ص١١٩.
(٤) ابن الفوطي : المصدر السابق، ص٤٦٧.
(٥) A.L. Basham : The Wonder that was India, (London – 1962), P., 76.
(٦) أرسلت مؤسسة (Eric / Cass) هذه المعلومات بريديًا (U.S.A – 1999).

السلطان غياث الدين تغلقشاه النهوض بالبلاد نحو الرقي والتقدم وإصلاح الإدارة على الرغم من شيخوخته وكان لإبنه جونا محمد تغلق[١] علاقات وطيدة مع دولة المماليك في مصر بخاصة بعد أن قضى على التمردات الداخلية في بلاده ونقل العاصمة إلى ديوجير Deogir وسمّاها دولة آباد[٢].

ثانيًا : رسائل التفويض بالحكم :-

منذ أن انتقلت الخلافة العباسية إلى مصر حلّت محل بغداد بالنسبة للعالم الإسلامي، وصارت فعلاً مركزًا لهذا العالم، ولم تكن أهمية الخلافة العباسية لمصر في أشخاص الخلفاء أنفسهم فحسب بل في وجودهم في عاصمتها فقد كانت خلافة صورية على الأقل في نظر السلاطين المماليك الذين استخدموها لأغراضهم السياسية[٣] ومثلما كان السلاطين المماليك أنفسهم يتشرفون بتفويض من الخليفة العباسي بالحكم على الوجه الشرعي فقد التمس حكام وسلاطين العالم الإسلامي التفويض من الخليفة العباسي في القاهرة على حكمهم، ومن بين الدول

---

(١) كان هذا السلطان أحب الناس في إسداء العطايا وإراقة الدماء فلا يخلو بابه من فقير يغنى وحي يقتل وقد اشتهرت حكاياته بين الناس ما بين الكرم والشجاعة والبطش والتعسف ضد ذوي الجنايات. واصل فتوحاته وتكاثرت جيوشه وخطب له على منابر بلاده جميعها واتخذ ألقابًا عديدة منها : سلطان الإسلام، واسكندر الزمان، ويدعي بعض المستشرقين أن قسوته وتعصبه قادت البلاد إلى الدمار مع استمرار حركات التمرد ضده. ينظر : ابن بطوطة : المصدر السابق، ص٤٤١ ؛ محمد بن علي الشوكاني : البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، (بيروت – لات)، ج٢، ص١٨٠ ؛ عبد الحي الحسني : الهند في العصر الإسلامي، ط١، مطبعة دار المعارف، (نيودلهي – ١٩٧٢)، ص١٩٧.

(٢) هي مدينة قديمة في جنوب الهند جددها السلطان محمد تغلق وسمّاها قبة الإسلام وأنشأ فيها مؤسسات قضائية وإدارية فضلاً عن الأسواق والمساجد. ينظر : القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج٧، ص٦٧ ؛ W.H. Moreland : A Short History of India, (London – 1968), P., 162.

(٣) إبراهيم علي طرخان : مصر في عصر المماليك الجراكسة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة – ١٩٦٠)، ص٥٢-٥٣.

التي حصلت على تفويض بالحكم الهند الإسلامية[١]. فقد قام غياث الدين بلبن (٦٤٤-٦٦٤هـ/١٢٤٨-١٢٦٦م) أحد سلاطين مماليك دلهي بمراسلة الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله (٦٦٠-٧٠١هـ/١٢٦١-١٣٠٢م) وحصل منه على تفويض بالحكم فسكّ عملة البلاد باسمه وقرأ له الخطبة[٢].

وفي حكم السلطان محمد تغلقشاه الذي كان يريد إظهار الدعوة العباسية في الهند[٣] أدرك أن حكمه لا يمكن أن يكتسب الصفة الشرعية ما لم يبادر في الحصول على تفويض شرعي من الخليفة العباسي في القاهرة فتبادل الرسائل والسفارات مع الخليفة المستكفي بالله (٧٠١-٧٤١هـ/١٣٠٢-١٣٤٠م) وطلب منه تفويضًا لحكمه فأجابه الخليفة على طلبه وأرسل إليه خلعة الحكم مع هدية جليلة لم تذكر المصادر نوعيتها. وعندما وصلت الخلعة إلى الهند بالغ السلطان محمد تغلق في احترام هذا التقليد فأمر بنقش أسم الخليفة على عملة بلاده، فظل اسم الخليفة ينقش على العملة مصحوبًا بدعاء "أطال الله بقاء الخليفة". فضلاً عن ذلك فقد انتهز السلطان محمد تغلق علاقته الطيبة مع مصر فرغب في توسيع نطاق حكمه نحو الصين وخراسان ورمى من وراء ذلك إلى إضعاف نفوذ المغول ودرء خطرهم عن دولته فأرسل إلى سلطان مصر المملوكي الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٠هـ/١٣٣١م سفارة تحمل كتابًا ومقلمة من ذهب مع هدايا أخرى ثمينة من الجواهر والماس، ولكن رسله اختلفوا فيما بينهم فقتل بعضهم بعضًا وهم على السواحل العربية قرب اليمن، ولما سمع سلطان اليمن بالخبر قتل الباقين وظفر بالهدية[٤]. ولما سمع الناصر محمد بن قلاوون بذلك

---

(١) الظاهري : المصدر السابق، ص٨٩.

(٢) Maqbul : OP. Cit., P., 73.

(٣) استهل هذا السلطان حكمه باستقبال الأمير غياث الدين محمد بن الخليف المستنصر بالله العباسي، فأكرمه وأقطعه قرى عديدة وأعدّ له كل ما يحتاج إليه من وسائل الراحة. ينظر : ابن بطوطة : المصدر السابق، ص٤٥٩ ؛ الحسني : نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، (حيدر آباد – ١٣٥٠هـ)،ج٢، ص١٣١.

(٤) شهاب الدين احمد بن علي بن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد – ١٩٧٢)، ج٥، ص٢٠٤-٢٠٥.

أرسل إلى سلطان اليمن كتابًا يؤنبه فيه على فعلته تلك التي لا تليق بالسلاطين جاء فيه أنه "أمسى من الملوك وأصبح من قطاع الطرق"[١].

وقد استمرت المراسلات والسفارات بين مصر والهند من أجل تنسيق المصالح المشتركة بينهما، ففي سنة ٧٣١هـ/١٣٣٢م وصلت إلى مصر سفارة أخرى من السلطان محمد تغلق تتكون من سبعة أشخاص أكرمهم الناصر محمد وأحسن إليهم طيلة فترة بقائهم في مصر والبالغة عشرة أيام[٢]. ويبدو أن هذه السفارة كانت قد تضمنت مشروعًا للتحالف بين مصر والهند للقيام بهجوم مشترك ومتزامن ضد المغول في مناطق غرب إيران وتضييق الخناق عليهم. وبالرغم من علاقات المودة القائمة بين مصر والهند إلا أن السلطان الناصر محمد لم يستجب لهذا التحالف العسكري لأن علاقة مصر مع حكام إيران المظفريين (٧١٥-٧٩٥هـ/١٣١٤-١٣٩٣م) كانت جيدة ووطيدة بدليل أن مصر عقدت معاهدة صداقة وسلام مع حكام إيران سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٤م[٣] إذ كان الناصر محمد ينتهج سياسة محددة تتفق مع مصالحه تجاه الدول التي لها علاقات طيبة مع دولته، وموقف الناصر هذا بصورة الحليف والصديق يعطي هذه الدول أملاً كبيرًا في تحقيق ما تريده في المستقبل، ونتيجة لذلك تسعى على الدوام لتوطيد علاقاتها مع كثير من دول العالم الخارجي واستخدام تلك العلاقات كورقة رابحة لمصلحة بلاده عند الحاجة في تعامله مع الدول الأخرى[٤].

وعندما تولى الخليفة الحاكم بأمر الله الخلافة في مصر سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م، أدرك ارتباط تغلق بالخلافة وولائه للخليفة فأرسل إليه خلعة أخرى بيد سفيره (حاجي سعيد صرصري) سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٤م وعندما

---

(١) ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، (القاهرة – ١٨٩٤)، ص٤٩.

(٢) المقريزي : السلوك ...، ج١، ق٢، ص٣٣٣.

(٣) S.Lane Poole : Egypt in the Middle Ages, (Holland – 1968), PP., 174,310..

(٤) حياة ناصر الحجي : العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية، ط١، مؤسسة الصباح، (الكويت – ١٩٨٠)، ص١٦١.

وصلت هذه السفارة إلى الهند خرج محمد تغلق بصحبة النبلاء والأمراء في بلاطه وقابل الوفد بمظاهر الحفاوة والاحترام فعبر ذلك الموقف عن المشاعر الحقيقية للمسلمين الهنود تجاه الإسلام والخلافة العباسية[١].

وعندما توفي السلطان محمد تغلق خلفه ابن عمه فيروزشاه تغلق (٧٥٢-٧٩٠هـ/١٣٥١-١٣٨٨م) فنقل العاصمة إلى كلبركة Gulbarga واستطاع التوسع بالبلاد إلى إقليم ما وراء النهر فكانت فتوحاته موضع إعجاب الخلافة في القاهرة[٢] فحذا حذو سلفه السلطان محمد تغلق واكتسب الصفة الشرعية بالحكم من الخليفة المعتضد بالله العباسي (٧٥٣-٧٦٣هـ/١٣٥٢-١٣٦٢م) الذي أجابه على طلبه وأرسل إليه خلعة مماثلة للخلعة التي أرسلت إلى السلطان محمد تغلق، كما أرسل إليه خطابًا يتضمن الكثير من عبارات المدح والاحترام. وقد وصل هذا التقليد إلى سلطان الهند سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م. وقد بالغ السلطان فيروزشاه في احترام هذا التقليد وتقدم بخطوة أخرى فسك عملة البلاد باسم الخليفة المعتضد بالله وبعث إليه بعينة منها كي يرد بها جميله الذي أنعم عليه[٣]. كما استحدث لقبًا سياسيًا جديدًا هو (نائب الخليفة) في الحكم على أقاليم الهند وذلك تعبيرًا على مكانة سلطنة دلهي عند الخلافة واحترامًا للنظام السياسي القائم في مصر والهند على حد سواء ولكي يغطي ضعفه السياسي أضفى عليه الجانب الشرعي لتقوية لحكمه[٤].

وقد تحدث السلطان فيروز تغلقشاه في سيرته على احترامه وتقديره للخلافة قائلاً "كان أعظم ما نلته من رحمة الله أنه بفضل طاعتي وتقواي وصداقتي للخليفة ممثل النبي ﷺ توطدت سلطتي، فتأييده تحمى السلطات ولا

---

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر، (القاهرة – ١٩٤٧)، ص٩٧-٩٨ ؛-

- Nehru : OP. Cit., P., 346.

(٢) W.H. Moreland : OP. Cit., P., 310.

(٣) ب. ن. تشوبرا : العلاقات الثقافية بين الهند والجمهورية العربية المتحدة، مجلة ثقافة الهند، ع٤، سنة ١٩٦٢، ص١٠٦.

(٤) Maqbul : OP. Cit., P., 75.

يصبح أي ملك آمنًا على ملكه إلا بعد أن يذعن للخليفة وينال تثبيتًا من العرش المقدس، وقد أرسل الخليفة عهدًا بتثبيت سلطتي كنائب له ومرشد للمؤمنين وإني لفخور بأن يلقبني الخليفة بسيد السلاطين، كذلك أنعم عليّ بخلعة ولواء وسيف وخاتم، وهذه كلها تمثل شعار الشرف"[1].

ويمكننا أن نستدل من هذا النص على مدى ترسخ مكانة الخلافة العباسية في نفوس السلاطين الهنود ومدى سعيهم لكسب ود الخلافة في القاهرة فضلاً عن مدى تقدير الخلافة لجهودهم بإرسالها الهدايا والألقاب إليهم. وعندما مات السلطان فيروزشاه سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م تولى السلطنة السلطان غياث الدين تغلقشاه الثاني فحدثت في عهده اضطرابات داخلية وأحداث أدت في النهاية ضعف السلطنة، ودام ذلك حتى دخول تيمورلنك[2] البلاد سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م[3]، فكانت هذه الصراعات والاضطرابات عاملاً ساعد تيمورلنك على اختراق البلاد واحتلالها وممارسة أعمال التعسف والقتل والتخريب فيها[4] وبعد أن حقق تيمورلنك مطامعه من الهند تركها بعد أن خلّف فيها نائبًا عنه هو (سيد خضر خان) [5] الذي أسس أسرة السادات في دلهي، وفي ذلك الوقت كان السلطان الظاهر برقوق قد أسس دولة المماليك الجراكسة في مصر سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م بعد أن قضى على الحكم القلاووني من المماليك البحرية وقد اعترفت بها العديد من الدول الإسلامية حال قيامها وكتبوا إلى

---

(١) سرور : المرجع السابق، ص١٠٠ نقلاً عن : H.M. Eliot : History of India. Vol. 3 P., 387.

(٢) كان تيمورلنك أحد الأبناء المزارعين البائسين ممن يسرق ويقطع الطريق، وقد خدم في اصطبلات خيل السلطان إلى أن ترقى إلى ما ترقى إليه فبدا بهجماته منذ سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م. ينظر : الإسحاقي : المصدر السابق، ص١٣٣.

(٣) الحسني : الهند في العصر الإسلامي، ص٢٠٠.

(٤) شهاب الدين احمد بن محمد بن عربشاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور، المطبعة العثمانية، (القاهرة – ١٣٠٥)، ص٦٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ...، ج١٢، ص٢٦٢.

(٥) كان خضر خان يدعي أن نسبه يصل إلى النبي محمدﷺ . ينظر : الندوي : تاريخ الصلات، ص١٥٤.

الظاهر برقوق بإعلان احترامهم وتقديرهم لدولته، فأرسل إليهم ما يؤيد تواصله معهم ويجدد ما بدأته الدولة الأولى (البحرية) من علاقات مع الدول المجاورة والصديقة. ومثلما بعث إليه عدد من ملوك الغرب (كالممالك الإيطالية والإسبانية) بالهدايا دلالة على صلات الود والمحبة[١] فقد استمرت هذه العلاقات قائمة بين مصر والهند في عهد الدولة المملوكية الثانية، وتشير عدد من المصادر التاريخية باجتماع كبير جرى بين سفراء من القاهرة ودلهي ومكة عند سلطان اليمن في يوم واحد وذلك سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م[٢]. ويبدو أن ذلك الاجتماع أسفر عن تعزيز الروابط الودية بينهم والتداول والاتفاق لما فيه صالح هذه البلاد خدمة لرعاياها.

وفي سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م توفي الظاهر برقوق وتولى ابنه السلطان فرج أبو السعادات (٨٠١-٨٠٨هـ/١٣٩٨-١٤٠٥م) السلطنة وفي عهده سيطر تيمورلنك على جهات واسعة من بلاد الشام كحلب ودمشق وحماة وغيرها[٣]. وعلى الرغم من ضراوة هذه الأحداث فقد استمر ملوك الهند يستمدون التفويض بالحكم من الخليفة العباسي بالقاهرة لإضفاء الشرعية على حكمهم، ففي سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م عهِدَ الخليفة المستعين بالله العباسي (٨٠٨-٨١٦هـ/١٤٠٦-١٤١٤م) بالإجابة لطلب أحد ملوك الهند المسلمين وهو السلطان مظفر شاه (٧٩٣-٨١٤هـ/١٣٩١-١٤١١م) حاكم إقليم كوجرات فأرسل إليه الخليفة الخلعة والتقليد[٤].

كما أرسل السلطان غياث الدين أعظم شاه (٧٩٢-٨١٤هـ/١٣٩٠-١٤١١م) سلطان إقليم بنغالة إلى الخليفة المستعين بالله يطلب تفويضًا مماثلاً

---

(١) المقريزي : السلوك ...، ج٣، ق٢، ص٦٥٢.

(٢) علي بن الحسن الخزرجي : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح محمد بسوني علي، مطبعة الهلال، (القاهرة – ١٩١٤)، ج٢، ص٢٩٧.

(٣) عبد الله الشرقاوي : تحفة الناظرين فيمن وليّ مصر من الخلفاء والسلاطين، مطبعة الحلبي، (القاهرة – ١٨٩١)، ص١٣٥.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج١٠، ص١٢٩-١٣٤ ؛ ينظر : ملحق رقم (٣)، ص١١٩.

وخلعة وبعث إلى السلطان فرج بن برقوق مالاً وهدية ثمينة وذلك سنة ٨١٤هـ/١٤١١م[١] ولكن سرعان ما وافته المنية بعد أن خلّف آثارًا جليلة تشهد لها مكة والمدينة من مدارس ومساجد[٢].

وتعد المدة الواقعة بين ٨١٤-٨٢٥هـ/١٤١١-١٤٢٣م فترة جمود وانقطاع نسبي في تاريخ العلاقات المصرية الهندية. ففي مصر تولى السلطان المؤيد شيخ الحكم وانشغل بقمع التمردات والثورات الداخلية في مصر وبلاد الشام وتمكن من تهدئة الأوضاع فيها ولكن الأخطار الخارجية كانت ما تزال محدقة بالدولة المملوكية فاستمرت حروب المؤيد شيخ ضد الإمارات التركمانية[٣] من سنة ٨١٥-٨١٩هـ/١٤١٢-١٤١٦م حتى تمكن ابنه إبراهيم من تهدئة الأوضاع وتحقيق الاستقلال[٤].

وفي سنة ٨٢٤هـ/١٤٢٢م تولى الحكم في الدولة المملوكية السلطان الظاهر ططر Tatar وكان عارفًا بأحوال الناس والعامة وقريبًا من الفقهاء والعلماء في مصر والشام[٥] ولم يحكم أكثر من سنة واحدة ولكن سرعان ما عادت العلاقات إلى عهدها السابق وذلك أثر تولي السلطان الأشرف برسباي الحكم سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٣م إذ عرف باهتمامه وتشجيعه على إقامة النشاطات التجارية مع الهند وتنظيم احتكارها فبعد سنوات من توليه الحكم وصلته سفارة

---

(١) جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، (القاهرة – ١٩٥٢)، ص٥٠٨.

(٢) ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر بأبناء العمر، ط١، دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد – ١٩٧٢)، ج٢، ص٤٧.

(٣) هي تلك الإمارات التي قامت في أواسط وشرق آسيا الصغرى وأذربيجان وبلاد فارس والعراق وكانت تابعة إداريًا لحلب ودمشق وأبرزها إمارة دلغادر وإمارة قرة قوينلو وإمارة آق قوينلو. ينظر : محمد بن احمد البدر العيني : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر، تحقيق هانز ارنست، مطبعة الحلبي (القاهرة – ١٩٦٢)، ص٤،٥.

(٤) مجهول : تواريخ مصر والشام وحلب ودمشق والقدس، مخطوط مصور في مكتبة المجمع العلمي العراقي، برقم ، بغداد، ص٣٧-٣٨ ؛ ضومط : المرجع السابق، ص٣٥٤.

(٥) العيني : المصدر السابق، ص١٩.

من السلطان محمد بن فندو صاحب بنغالة محملة بالبضائع والهدايا الثمينة لتعزيز الروابط الودية القائمة بين البلدين طالبة التشريف بالعهد من الخليفة العباسي المعتضد بالله (٨١٦-٨٤٥هـ/١٤١٤-١٤٤١م) الذي استجاب لهذا الطلب بعدما سمع بما قام به هذا السلطان من محاسن وخيرات في الديار الإسلامية المقدسة فضلاً عن إقامته شعائر الإسلام على أصولها في الهند[١]، وعندما وصل هذا التفويض إليه بادر بإرسال هدية ثمينة إلى الخليفة سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م تعبيرًا عن احترامه لمكانة الخلافة[٢].

ويتضح مما سبق أن تلك السفارات والمراسلات لم تكن تأتي من سلطنة دلهي فحسب وإنما كانت تأتي من قبل سلاطين الأقاليم الشرقية والغربية للهند، وحتى والأقاليم البعيدة منها، إذ تشير المعلومات إلى وجود صلات قوية بين الخلافة العباسية في القاهرة وبين السلطان محمود الخلجي (٨٣٩-٨٧٤هـ/١٤٣٥-١٤٦٠م) حاكم إقليم مالوا الإسلامية والذي عرف قائدًا مسلمًا واجه تمردات عديدة وحارب إلى جانب المسلمين في أقاليم مختلفة لاسيما كوجرات وأجمير وراجبوتانا. وقد راسل الخليفة العباسي المعتضد بالله الذي اعترف به سلطانًا على وسط الهند وأعطاه تفويضًا شرعيًا بحكمه على إقليمه مالوا[٣].

وعندما تولى السلطان جقمق الحكم في مصر (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) انقطعت تلك العلاقات لمدة مؤقتة بسبب انشغال السلطان بإرسال عدة حملات بحرية ضد جزر بحر الشام لاعتدائها على السفن العربية الإسلامية[٤].

---

(١) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، (بيروت – لات)، ج٨، ص٢٨٠.

(٢) استمر هذا السلطان بأعماله الخيرية حتى وفاته سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م وتولى السلطنة ابنه السلطان المظفر احمد شاه الذي سار على خطى والده. ينظر : علي بن داود الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، (القاهرة – ١٩٧٣)، ج٣، ص٢٩٧-٢٩٨ ؛ ابن حجر : أنباء ....، ج٨، ص٣٣٢٦.

(٣) أرسلت مؤسسة شومان هذه المعلومات بريديًا، (عمان – ١٩٩٩).

(٤) اليوزبكي : المرجع السابق، ص٢٨-٢٩.

وفي سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م تولى السلطان أبي النصر اينال الحكم في مصر وفي عهده كانت أسرة السادات في الهند قد تلاشت نتيجة للصراعات المحلية والمشاكل الداخلية، فأسس السلطان بهلول اللودي أسرة جديدة في دلهي وهي أسرة اللوديين التي بدأت علاقات سياسية جديدة مع دولة المماليك في مصر. فعندما كان السلطان بهلول اللودي يعاني من تهديد حاكم العراق السلطان حسن الطويل(١) أرسل سفارة إلى السلطان اينال يعرض فيها شكواه ويطلب منه تدخله لحسم الأمر، فسرعان ما ردّ عليه السلطان اينال بمكاتبة أخرى وصلته سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م(٢) غير أن المصادر لم تشر إلى فحوى تلك المكاتبة.

والجدير بالذكر أن السفارات والهدايا القادمة من بلاد الهند لم تكن موجهة حصرًا إلى السلاطين والخلفاء في القاهرة وإنما تعدتها لتشمل الأمراء والفقهاء ومجموعة من الشخصيات المهمة. فتدلنا عددًا من المصادر التاريخية على ما كان يصل من هدايا وبضائع ثمينة من سلاطين الهند إلى الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله الظاهري(٣) سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٤م وما كان يصل إلى غيره من الأمراء.

فضلاً عن ذلك فقد أخذت العلاقات المصرية الهندية بالاستمرار والتواصل منذ زمن حكم السلطان الأشرف قايتباي الذي يعد عهده من العهود المميزة في تاريخ مصر في العصور الوسطى الإسلامية ليس لطول عهده (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٥م) فحسب، وإنما لحسن تدبيره الأمور وقوة الدولة

---

(١) هو أحد أشهر أعضاء قبيلة الآق قوينلو التركمانية التي هاجرت من تركستان ثم سكنت نواحي ديار بكر ثم آمد والموصل وكونوا دولتهم في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، توفي سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٨م. ينظر : سليمان : المرجع السابق، ج٢، ص٥٣٩.

(٢) محمد بن احمد بن أياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط١، المطبعة الأميرية ببولاق، (القاهرة – ١٨٩٤)، ج٢، ص٥٦٠.

(٣) هو الدوادار أو الكاتب المعروف بنائب جدة ومستحصل الضرائب فيها. ينظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ...، ج١٦، ص٣٢٣.

المملوكية في عهده[١] فضلاً عن اهتمامه بإقامة العلاقات السياسية والتجارية مع الهند، فما أن تولى الحكم حتى وصلته سفارة من لدن سلطان الهند[٢] سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٩م وحملت إليه رسالة تضمنت مشاعر الود والاحترام لسلطان مصر وللخليفة العباسي المستنجد بالله (٨٥٩-٨٨٤هـ/١٤٥٥-١٤٧٩م).

وكان السلطان الأشرف قايتباي يحسن استقبال السفراء الوافدين إلى بلاطه فترك محل إقامته في القلعة وتوجه إلى خانقاه سرياقوس[٣] وأمر بنصب الخيام الكبيرة فيها والتي ما كانت تقام إلا عند حضور السفراء الكرام من الدول الصديقة والسلاطين العظام[٤] فوصفها ابن تغري بردي بأنها "كانت عزيمة هائلة أذهلت عقول الحاضرين جميعهم"[٥].

ولم تكد تمضي ثلاث سنوات على هذه السفارة حتى وصل سفير من إحدى جهات الهند الإسلامية (؟) مصحوبًا بالهدايا النفيسة إلى السلطان قايتباي والى الخليفة المستنجد بالله ومعه رسالة يطلب فيها التفويض لحكمه على إقليمه فأكرم السلطان السفير وكتب الخليفة التفويض له وخلع عليه التشاريف السلطانية وعندما وصل هذا التشريف إلى سلطان الهند بالغ في احترام هذا التقليد وأرسل هدايا جميلة إلى الخليفة والسلطان كان من جملتها فيلٌ عظيم الخلقة، وخيمة كبيرة دشنها السلطان مع أمرائه وحاشيته في وليمة كبيرة في خليج الزعفران وأقام فيها لثلاثة أيام[٦].

واستمرت صلات الود والمجاملة تلك قائمة طيلة عهد السلطان قيتباي إذ وصلت إلى بلاطه سفارات مماثلة من عدد من سلاطين الهند الإسلامية أعوام

---

(١) طرخان : المرجع السابق، ص٣٨.

(٢) لم يشر المصدر إلى اسم هذا السلطان ومنطقة حكمه، غير أنه من المرجح أن يكون السلطان بهلول اللودي مؤسس أسرة اللوديين.

(٣) هي قاعة كبيرة أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون خارج القاهرة من شماليها سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٢م. ينظر : المقريزي : الخطط ...، ج٢، ص٤٢٠.

(٤) الظاهري : المصدر السابق، ص٣٦ ؛ ابن اياس : المصدر السابق، ج٢، ص١٠٢.

(٥) منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحرير وليم ببر، (كاليفورنيا – ١٩٣١)، ج٣، ص٦٨٠.

(٦) ابن أياس : المصدر السابق، ج٢، ص١٣١.

٨٨٤هـ/١٤٧٩م،
و ٨٨٨هـ/١٤٨٣م فواصل السلطان سياسته في إكرام السفراء والوفود والقيام بما هو واجب لراحتهم[١]. وفي تلك المدة كانت الأسرة اللودية في الهند قد اضمحل دورها بسبب الفتن والاضطرابات في الهند وقيام الدويلات المحلية في أرجاء مختلفة من الهند الإسلامية. وفي مصر توفي السلطان قايتباي سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م بعد أن كان أكثر السلاطين الجراكسة ميلاً إلى قلوب الرعية التي عاشت في ظله عيشًا هنيئًا[٢] كما ارتاح له الكثير من سلاطين الهند وملوكها مما يفسر لنا جمود العلاقات السياسية بين الدولتين بعد وفاته، إذ تولى الحكم في مصر عدد من السلاطين غير المؤهلين الذين لم يكن لهم سوى تحقيق المطامع الشخصية فضلاً عن انشغال بعضهم بالتصدي للأخطار الخارجية المحيطة بالدولة المملوكية.

** ** **

---

(١) ابن أياس : المصدر نفسه، ج٢، ص٢٢٥،١٩٠،١٥١.

(٢) الإسحاقي : المصدر السابق، ص١٣٧.

المبحث الثالث

العلاقات العسكرية

استمر ذلك الوضع حتى وصول السلطان قانصوه الغوري الحكم في مصر (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥١٦م) الذي عرف بالذكاء والفطنة واستطاع الحد من نفوذ الأمراء وعمل على استقرار البلاد بسياسته الحكيمة "فاشتد ملكه وزادت هيبته فهادنته الملوك وأرسلت قصادها إليه"[١]. وفي عهده وصلت القوى الأوربية المتمثلة (بالبرتغاليين) إلى مياه المحيط الهندي وأخذت تهدد الكيان السياسي لدولة المماليك فضلاً عن تهديدها للتجارة المصرية الهندية[٢]، مما دفع من المؤرخين إلى عدّها حملة صليبية جديدة ومقدمة مشؤومة لاستعمار الشرق[٣]. وعندما وصل البرتغاليون إلى سواحل مليبار Malabar سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م بدأوا بأعمالهم التعسفية والتخريبية وعملوا على منع تجارة المسلمين مع السواحل الهندية[٤] فكان وجودهم حاسمًا من الناحية السياسية والعسكرية فأدرك سلاطين الهند عدم مقدرتهم على مواجهة أساطيل البرتغاليين الجيدة التسليح الكثيرة العدد بمفردهم فكان أن بدأت مراسلات سلاطين الهند الإسلامية تستنجد بالسلطان قانصوه الغوري وتستحثه على توحيد الجهود والقيام بعمل عسكري مشترك لطرد البرتغاليين من سواحل المحيط الهندي، فقد بعث سلطان كوجرات محمود شاه بيغرا (٨٦٢-٩١٧هـ/١٤٥٨-١٥١١م) وحاكم

---

(١) أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدس، (بيروت – ١٩٣٢)، ج٨، ص١١٣-١١٤.

(٢) نظرًا لأن طبيعة الحملة اقتصادية بحتة فقد ارتأى الباحث إدراج تفاصيلها في الفصل الثالث من هذه الرسالة.

(٣) سليم : الأشرف قانصوه الغوري، الدار المصرية للطباعة والنشر، (القاهرة – لات)، ص١١٤.

(٤) زين الدين المعبري : تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، تحقيق ديفيد لوبيز، (لشبونا – ١٨٩٨)، ص٣٦

كاليكوت المسمى بـ (الزامورين) Zamorin بمراسلاتهم وسفرائهم إلى السلطان الغوري طالبين منه إرسال قوى بحرية إلى سواحل الهند وتنظيم خطة دقيقة يتم بموجها إقصاء البرتغاليين عن المنطقة(١)، وبالفعل فقد استجاب السلطان الغوري لهذا النداء وجهز أسطولاً كبيرًا بقيادة الأمير حسين الكردي(٢). وانطلق الأسطول المؤلف من ثلاث عشرة سفينة من السويس إلى ميناء جدة سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م وكانت خطة قائد الحملة سهلة هدفها الأول السيطرة على ميناء
ديو Diu (٣) واتخاذها قاعدة له يستطيع من خلالها الاتصال بأساطيل الهند والقيام بهجوم مشترك على الأسطول البرتغالي، وهذا ما جرى فعلاً، ففي سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م التقى الحلفاء بالبرتغاليين في معركة تشاول Chaul وهي منطقة جنوب مدينة بومباي على السواحل الهندية، وكانت معركة كبيرة أسفرت عن هزيمة أسطول البرتغاليين وقتل قائدهم لورينزو دا الميدا Lorenzo Da Almeda (٤) على أن البرتغاليين تعلموا درسًا من هزيمتهم فعززوا من سفنهم وجنودهم وعينوا عليهم قائدًا جديدًا هو الفونسو البو كيرك Alfonso Albu Querque(٥). فبغاتوا الأساطيل المصرية الهندية بهجوم سريع في موقعة ديو

---

(١) المعبري : المصدر نفسه، ص٤٠ ؛ Bosworth : OP. Cit., P.,200.

(٢) هو نائب جدة عينه السلطان الغوري مستوفيًا لجباية ضرائب تجارة الهند، وكان يعسف بالتجار فيأخذ من تجارة الهند المثل بعشرة أمثال. ينظر : ابن أياس : المصدر السابق، ج٣، ص٦٠.

(٣) هو أحد الموانئ الساحلية المهمة على المحيط الهندي. ينظر : Tossaint : OP. Cit., P., 104.

(٤) المعبري : المصدر السابق، ص٤٠ ؛ اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، ط١، المطبعة الأميرية، (القاهرة – ١٨٩٨)، ج٢، ص٣٥ ؛ Poole : OP. Cit., P., 352.

(٥) هو القائد البرتغالي الذي اتصل بنجاشي الحبشة وحاول الاتفاق مع على تحويل مصب النيل ليميت مصر لشدة كراهيته للإسلام. ينظر : المعبري : المصدر السابق، ص٤١ ؛ سليم : الأشرف قانصوه الغوري، ص١١٦.

البحرية سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م وأغرقوا السفن المصرية والهندية في مياه المحيط الهندي(١).

وبعد معركة ديو الفاصلة استمر سلاطين الهند بمراسلة السلطان الغوري مجددًا لإعلان رغبتهم في طرد البرتغاليين نهائيًا من السواحل الهندية، ففي سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م وصلت إلى مصر سفارة من صاحب كمباية السلطان المظفر شاه وقدم السفراء الهدايا الثمينة للسلطان الغوري وطلبوا من الخليفة المتوكل على الله (٩١٤-٩٢٢هـ/١٥٠٨-١٥١٦م) تفويضًا شرعيًا لحكم سلطانهم كي يتولى مسؤولية مقاومة الأسطول البرتغالي، فأعطاهم الخليفة الخلعة وأكرهم السلطان(٢). كما وصلت سفارة أخرى إلى مصر سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م من سلطان الهند (؟) حملت مشاعر الود والمحبة فضلاً عن هدايا كان من جملتها فيلان عظيمان مجهزين بسراجين ومزينان بالديباج وعرضا على السلطان في موكب كبير وبجو احتفالي عظيم(٣)، وكان حماس السلطان الغوري لا يقل عن دوافع السلاطين الهنود في طرد البرتغاليين من المحيط الهندي(٤). فقرر إعداد حملة جديدة تتعقب البرتغاليين في الموانئ الهندية وتضيق الخناق عليهم وقام بزيارة إلى ميناء السويس سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م لمشاهدة المراكب التي أنشأها(٥) كما أمر قائد الحملة الأمير حسين بتحصين سواحل المدينة المنورة وموانئ جدّة وينبع وبنى أسوارًا منيعة لحمايتها من البرتغاليين العابثين(٦). وقد وصلت الحملة

---

(١) سرهنك : المرجع السابق، ج٢، ص٣٦ ؛ Tossaint : OP. Cit., P., 105.

(٢) ابن أياس : المصدر السابق، مطابع الشعب، (بغداد – ١٩٦٠)، ج٧، حوادث سنة ٩١٤هـ.

(٣) سليم : عصر سلاطين المماليك، ق٢، ص٣٢١.

(٤) يذكر ابن أياس أنه عندما اشتدت حاجة السلطان إلى أخشاب لصنع السفن لحرب البرتغاليين فان رجاله صاروا يقطعون أشجار الناس من الحدائق والبساتين ويرسلونها إلى السويس لأجل عمارة المراكب هناك. ينظر : بدائع الزهور ....، ج٣، حوادث سنة ٩٢٠هـ.

(٥) ابن أياس : المصدر السابق، ج٨، ص٨٩٢. ؛ سليم : الأشرف ....، ص٩٨-٩٩.

(٦) سليم : الأشرف ....، ص٩٨. لقد كان للغوري جملة أساطيل في البحر المتوسط حتى أنه في سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م عندما التجأ إليه الأمير كركود أخو السلطان سليم الأول

وصلت الحملة إلى ميناء كوجرات وجرى الاتفاق على طرد البرتغاليين من عدد من الموانئ الهندية بين الأمير حسين وسلطان كوجرات، غير أن الحملة باءت بالفشل مرة أخرى إذ وصلت الأخبار من الهند سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م بأن السفن التي أرسلها السلطان الغوري قد هزمت[١]. ثم توالت النكبات على دولة المماليك في وقت واحد عندما ظهرت دولة قوية منافسة لهم في الميدان السياسي وهي الدولة العثمانية حتى انتهى أمرهم على يد السلطان العثماني سليم الأول في معركة مرج دابق سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

على أية حال فقد كان للروابط التاريخية القديمة بين مصر والهند أثر كبير في المجال السياسي، إذ لم يكن ذلك الاتصال جديدًا في الفترة المملوكية، وهذا ما لمسناه منذ السفارة الأولى وحتى السفارة الأخيرة بينهما، إذ حملت تلك السفارات جميعها طابع الود والمجاملة بشكل متواصل، بل وأكثر من ذلك فهناك من سلاطين الهند من عدّ البلدين بلدًا واحدًا[٢].

وحول تأثير هذه السفارات فقد كان هناك اثنتان وعشرون سفارة بين البلدين لم يكن للجانب المصري منها نصيب سوى ثلاث سفارات مما يؤكد تأثير مصر السياسي في نظر العالم الإسلامي، وإذا كانت السفارة الأولى تهدف إلى تحقيق التعاون وتبادل المنافع بين البلدين فان السفارات التي تلتها قد بدا فيها ملوك وسلاطين الهند يلتمسون الحماية والأمن من الخلافة ويضفون الشرعية على حكمهم باعتبار أن الخلافة أعلى سلطة روحية، وفي الوقت الذي كان السلاطين المماليك في مصر يعدون مسألة أخذ البيعة من (الخلفاء) أمرًا شكليًا من أجل تعزيز سلطتهم، كان السلاطين في مختلف البلدان الإسلامية ومنها الهند ترسل سفراءها وتبعثهم من أجل الحصول على التفاويض لجعل حكوماتهم

العثماني طالبًا مساعدته على أخيه فأمده الغوري بعشرين سفينة تساعده على نزع السلطنة من أخيه. ينظر : سرهنك : المرجع السابق، ج٢، ص٣٥.

(١) ابن أياس : المصدر السابق، ج٣، ص٧٧ ؛ الحنبلي : شذرات...، ج٨، ص١١٥ ؛ سرهنك : المرجع السابق، ج٢، ص٣٥.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج٨، ص٧٩.

شرعية في نظر المسلمين[1]. وهكذا نستدل من كل ذلك أن الهدف كان واحدًا سواء لسلاطين المماليك أم لغيرهم من حكام المناطق الإسلامية آنذاك.

□□□ □□□

(١) تشير عدد من المصادر التاريخية أن هناك سلاطين من المماليك قطعوا الخطبة للخلفاء العباسيين على المنابر، لا بل هناك من السلاطين من تدخل في سلطة الخليفة وأمر وعزل بحسب ما يرى. ينظر : الشرقاوي : المصدر السابق، ص١٣٠ ؛ طرخان : المرجع السابق، ص١٣،٥٨.

الفصل الثالث
العلاقات التجارية

المبحث الأول
السياسة التجارية

أولاً : مصر :-

لاشك أن أي ازدهار حضاري في بلد ما يتطلب توافر عدة مقومات أسهمت في توفير الأرضية الخصبة لنموه، وبما أن التجارة هي إحدى المعالم الحضارية لتقدم البلاد ذات الموقع التجاري المميز والاستقرار السياسي فضلاً عن اهتمام الحكومة وتشجيعها للتجارة فمن الضروري الوقوف جليًا على الأبعاد الاقتصادية لها والإحاطة بهذه الأمور عند دراسة علاقاتها مع البلدان الأخرى، وهذا ينطبق تلقائيًا على علاقات مصر والهند التجارية.

عوامل ازدهار تجارة المماليك :-

على الرغم مما تركته الحروب الصليبية من آثار سلبية على جانبي البحر المتوسط (بحر الشام) فان العلاقات التجارية بين الدول لم تنقطع نهائيًا، إذ أن الاقتصاد يرتكز على وحدات يكمل بعضها الأخر، وعندما شارفت الحروب الصليبية على نهايتها أخذ الأوربيون يتحاشون المرور بأراضي الدولة المملوكية ويعززون الطريق البري القادم من أوربا إلى بلاد فارس فالهند، ولكن هذا لطريق سرعان ما أصبح غير ملائم بسبب التغيرات السياسية التي أحدثها دخول المغول لبغداد وبسط نفوذهم إلى بلاد فارس. وهنا برزت إلى الواقع الموانئ المملوكية لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ العلاقات التجارية الدولية[١]. ومنذ ذلك

---

(١) ضومط : المرجع السابق، ص١٨٠-١٨١.

الحين أظهرت الدولة المملوكية نظامًا للتجارة له قواعد ثابتة للمبادلات التجارية القائمة بين لآسيا وأفريقيا وأوربا وأحيانًا الصين[1].

سياسة المماليك التجارية :-

لم تكن واردات تجارة الهند وموقع مصر البحري خافية عن أذهان السلاطين المماليك، فأخذوا يشجعون تلك التجارة واتخذوا عدة سياسات كان الهدف منها ضمان استمرار تجارة مصر، ولعل أبرز تلك السياسات :

آ – تأمين الطرق التجارية :-

لم يكد يخلو أي طريق بحري في العصور الوسطى الإسلامية من خطر قطاع الطرق الذين وجدوا من أعمال السلب والنهب مهنة مناسبة تكفل لهم دخلاً غير مشروع، وغالبًا ما كانت السلطات تطاردهم وتحد من قرصنتهم. وقد حرص السلاطين المماليك على تأمين طرقهم التجارية مع الهند اقتداءً بسلاطين الدولة الأيوبية من قبلهم[2]، فقد شهد عهد السلطان المنصور قلاوون نزاعات واضطرابات داخلية بين عدد من القبائل العربية الساكنة في صحراء عيذاب على البحر الأحمر وعندها أمر السلطان حاكم تلك الثغور بأن يوفق بينها على سبيل المصالحة خوفًا على فساد الطريق وذلك سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م[3]. وذلك يدل على النشاط السياسي الذي بذله السلاطين المماليك من أجل تأمين طرق التجارة ليس من خطر الأعداء فحسب وإنما من النزاعات الداخلية أيضًا.

كما قامت مصر بتأمين رحلات تجارها في البحر الأحمر والبحر المتوسط (الشام) بشكل مضمون[4] وذلك بوضع نظام دقيق لجوازات المرور،

---

(١) بيتر فلكا : لماذا تخلف الشرق، مجلة فكر وفن، ع٤، (المانيا – ١٩٨٤)، ص٥.

(٢) وذلك في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي طهر السواحل المصرية في عيذاب من خطر قطاع الطرق سنة ٥٧٨هـ/١١٧٩م. ينظر : جمال الدين محمد بن واصل : مفرج الكروب في مناقب بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيّال، المطبعة الأميرية، (القاهرة – ١٩٥٧)، ج٢، ص١٢٨ ؛ شهاب الدين عبد الرحمن أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، (بيروت – لات)، ج٢، ص٢٤٠.

(٣) المقريزي : السلوك ...، ج٢، ق٣، ص٧٠٥ ؛ البيان والإعراب، ص١٢٨.

(٤) لقد كانت الملاحة في النيل مهمة وسريعة في العصور الوسطى الإسلامية على نحو غير اعتيادي ولم تكن الامدادات والبضائع تأتي إلى القاهرة إلا عن طريق الملاحة النيلية التي

فلم يكن أحد باستطاعته أن يترك الناحية التي يقيم فيها إلى ناحية أخرى من دون أذن من السلطات، وكذلك لابد بتصريح أو جواز للخروج من مصر. ويدرج في هذا الجواز كل من يرافق المسافر حتى ولو كانوا عبيده(١). ولهذا النظام فوائد عديدة للتجار وللحكومة فبوساطته تدون أسماء التجار وأماكن إقامتهم ومواعيد دخولهم وخروجهم مما يسهل على الحكومة الاطمئنان على حياتهم وراحتهم كما يضمن صحة الضرائب التي تستوفى منهم(٢).

ب- الاهتمام بالعلاقات الخارجية :-

إن مما ساعد على ازدهار تجارة مصر مع الهند هو أن سواحل البحر الأحمر كانت تدين لهم بالتبعية ولو اسميًا طيلة مدة حكم المماليك، وعمل عدد من السلاطين المماليك أمثال الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون على تأكيد تلك التبعية عن طريق إقامة علاقات طيبة مع سلاطين اليمن، تلك العلاقات التي استمرت حتى عهد الدولة الرسولية في اليمن (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م) حرصًا على سلامة التجارة والتجار(٣). ومثل هذا الكلام يقال على سياسة المماليك تجاه بلاد الحجاز التي ظلت تدين بالتبعية لسلطان المماليك الذي يخطب له على منابرها باسم (حامي الحرمين) (٤) حتى أصبحت مصر بفضل تلك السيادة البلد الأغنى في الدول العربية الإسلامية بتجارتها مع الهند(٥).

فضلاً عن ذلك فقد عقد المماليك عددًا من الاتفاقيات التجارية مع مجموعة من الممالك الإسبانية والجمهوريات الإيطالية التي كان الهدف منها تحقيق الربح

كانت دائمًا نشطة. ينظر : جاستون فييت : القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادي، مؤسسة فرنكلن للطباعة والنشر، (بيروت – نيويورك – ١٩٦٨)، ص١٠٢.

(١) اليوزبكي : المرجع السابق، ص٦٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٦٩.

(٣) المقريزي : السلوك ....، ج١، ق٢، ص٦٢١،٥٨١،٥٦٣ ؛ الخزرجي : المصدر السابق، ج٢، ص١٨٢.

(٤) الظاهري : المصدر السابق، ص١٦.

(٥) J.J. Saunders : A History of Medieval Islam, (London – 1980), P., 166.

المادي وتنشيط حركة التبادل التجاري معها[1] وساروا على سيرة أسلافهم الأيوبيين فأقاموا عناصر تشرف على شؤون أفراد الجاليات الأجنبية ومصالحها التجارية[2]. وقد أوردت عددًا من المصادر نصوصًا تشير إلى إبلاغ السلاطين المماليك لنوابهم على الموانئ والمدن التجارية لحسن معاملة التجار والتودد إليهم[3] ومنها المرسوم الذي أصدره المنصور قلاوون سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م ووجهه إلى ملوك وسلاطين بلاد الهند واليمن والصين وتجارها ليحثهم على القدوم إلى مصر وإقامة علاقات تجارية معها[4] فيقول فيه "ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن قام أو تردد فليعزم عزمًا من قدّر الله له في ذلك الخير والخبرة ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ذخيرة لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ومسلاة لمن تغرّب عن الوطن، فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين في الهند واليمن والصين لا يخشون فيها من يجور فان العدل قد أجار..."[5]. وذلك المرسوم إن دلَّ على شيء فانه يدل على حرص المماليك على ضمان حرية تجارتهم مع الهند عبر الطريق البحري فضلاً عن الإشادة بموقع مصر التجاري كوسيط في التجارة الدولية[6].

ج- سياسة المماليك مع التجار :-

تقرّب السلاطين المماليك من التجار وتوددوا إليهم وكانت طبقة التجار من أعلى طبقات المجتمع المملوكي، وكان ترددهم إلى البلاط دائمًا ومستمرًا فهم أصدقاء السلاطين وحاشيتهم وهم على درجات في الاحترام لدى السلطان فمنهم "الجناب العالي، والصدر الكبير، والخواجكي، وثقة الدولة وجمال الأعيان..."[7].

---

(١) الحجي : المرجع السابق، ص٢.

(٢) الظاهري : المصدر السابق، ص٤١.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج١١، ص٤٢١.

(٤) ابن الفرات : المصدر السابق، م٨، ص٦٥ ؛ المقريزي : السلوك ...، ج١، ق٢، ص٧٤٢.

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج١٣، ص٣٤٠-٣٤١ ؛ ينظر : الملحق رقم (٤)، ص١٢٠.

(٦) الحجي : المرجع السابق، ص٣٨.

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج٦، ص١٥٨.

فكانت مراسلات السلاطين لهم لا تخلو من عبارات الإجلال والاحترام فهم دون شك أسهموا في نهضة البلاد وعمرانها بخاصة أولئك التجار المسالمين الذين ينفقون جزءًا من أموالهم في الأعمال الخيرية(١).

هذا وكان من مظاهر النشاط التجاري في مصر والشام ومنذ العصر الأيوبي بناء الخانات والفنادق(٢) لتكون محطات لاستراحة المسافرين ولإيواء التجار ومبيتهم وذلك في المدن والموانئ الرئيسة(٣) وقد تابع المماليك تلك السياسة وبنوا فنادق متعددة تشهد لها مدن الإسكندرية ودمياط وغيرها وكانت التوصيات تأتي من السلاطين المماليك إلى حكام الثغور والموانئ لتؤكد الحفاظ على راحة التجار في الفنادق وحفظها من التخريب والأذى، تلك الفنادق التي خُصص بها لإقامة التجار الهنود واليمنيين وخُصص البعض الأخر للتجار الأوربيين(٤). ومن الطبيعي أن تكون هذه الفنادق قد أنشئت قرب الأسواق

---

(١) ومن أمثلة مراسلات السلاطين إلى التجار : "إلى عمدة التجار المنقطعين، قدرة الأكابر المعتبرين، محب الفقراء والمساكين، كهف الأرامل والمنقطعين، من فاق بحسن سيرته النجوم الزواهر وبجميل طلعته البدور السوافر وشاع في الخافقين ذكره وثناءه على الرغم من أنف كل مكابر". ينظر : مرعي الشيخ حماد الحنبلي : بديع الإنشاءات والصفات والمكاتبات والمراسلات، مطبعة أنستاس الكرملي، (القاهرة – ١٩١٧)، ص٢٣.

(٢) الفندق هو عدد من الحوانيت ومستودع للبضائع تحيط عادة بفناء واسع أو تكون أحيانًا على هيئة رواق مغطى حيث يحتفظ التجار بسلعهم، ولم يكن غرب الدولة العربية الإسلامية فنادق للغرباء والتجار حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وإنما كانت أشبه بأسواق يضعون في أسفلها بضائعهم وينامون في أعلاها. ينظر : ميتز : المرجع السابق، ج٢، ص٢٨٤.

(٣) ضومط : المرجع السابق، ص٢٠٧.

(٤) إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي بن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، مطبعة بولاق، (القاهرة – ١٨٩٣)، ص٩٠ ؛ شافع بن علي الكاتب : الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، (بيروت – ١٩٩٨)، ص١٢٢.

والأماكن التجارية وقد وجد في بعضها أماكن للصلاة والعبادة، ومن أبرز الفنادق في العصر المملوكي فندق الفسطاط، وخان الخليلي[١].

فضلاً عما سبق ذكره فقد اتبع المماليك سياسة اقتصادية تهدف إلى جمع أكبر قدر ممكن من المال من دون النظر إلى العواقب ففرضوا على التجار عددًا من الضرائب غير الشرعية التي تؤخذ منهم فوق الحد المقرر لها على مجموعة السلع، وهذا ما يسمى بالمكوس[٢]. فمثلاً كانت نسبة الضرائب المفروضة على البضائع الواردة من الهند إلى الإسكندرية ودمياط تصل نسبتها بين عشرة إلى خمسة وثلاثون بالمائة فتدفع السفينة التجارية ضريبة تربو على أربعين ألف دينار[٣].

كما جنت مصر من ضريبة العشر أرباحًا طائلة حتى يقال أن ناظر جدة حمل سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م إلى الخزانة المصرية ما يزيد على سبعون ألف دينار ثم وصل هذا المبلغ سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م إلى مائتا ألف دينار[٤].

وبهذا نلاحظ أن نسبة الضريبة تتغير تبعًا للظروف الاقتصادية وكمية البضائع والعرض والطلب كما يمكننا أن نستنتج أيضًا أن سياسة المكوس التي فرضها المماليك والتي كانت سببًا في الانتعاش الاقتصادي لمصر كانت قد حملت بين طياتها عوامل الاضمحلال والتدني في علاقاتها مع البلدان التجارية فنلاحظ أن تجارة المماليك تأرجحت في مدد مختلفة ما بين النمو والتقدم والازدهار وبين الانكماش والتأخر والانحطاط نتيجة لما فرضه السلاطين المماليك من مكوس عالية على التجارة الخارجية الأمر الذي دفع عدد من تجار الهند ومجموعة من أرباب المتاجر الأوربية في جنوا والبندقية إلى سحب

---

(١) نسبة إلى جهاركس الخليلي أحد أمراء السلطان برقوق، بناه في موضع كان مقبرة للخلفاء الفاطميين فأخرج عظام الأموات ورتب الموقع وبنى الخان. ينظر : المقريزي : الخطط...، ج٢، ص٩٤.

(٢) المقريزي : الخطط...، ج٢، ص١٢١.

(٣) شارل مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العهد المملوكي، جامعة الملك سعود، (الرياض – ١٩٨٥)، ص٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ص٨٤.

قناصلها ووقف التعامل مع مصر تجاريًا. وعندما أحس المماليك بخطورة الأمر بدأوا يغيرون قليلاً من سياستهم فمارسوا سياسة جديدة هي سياسة إسقاط المكوس أو تخفيضها وأول من بدأ بها من المماليك هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون وذلك اقتداءًا بالسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أسقط المكوس عن مصر سنة ٧٦٥هـ/١١٦٧م وجعل تجارة مصر حرة(١) فقام الناصر محمد بإلغاء المكوس عن التجارة والبضائع والسلع في التجارة الداخلية والخارجية كالملح والسكر وتجارة الرقيق وخفض ضريبة المرور في النيل وسهّل توريد السلع الأجنبية إلى مصر وعاقب كبار الأمراء والتجار الذين امتنعوا عن تنفيذ هذا المرسوم، كما أعاد إلى الخلافة السلطانية كلّ ما جمع ظلمًا وتعسفًا من الأموال فانتعشت البلاد في عهده أيّما انتعاش(٢). ولم تقتصر سياسة الناصر محمد على مصر فحسب بل طبقها على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ومتاجرها وذلك عندما ذهب للحج في ولايته الثالثة سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م فجعل سعر أردب القمح خمسة دراهم والشعير ثلاثة دراهم(٣).

وعززَ السلطان الظاهر برقوق من السياسة نفسها فأسقط الكثير من المكوس عن التجار أوقات الأزمات وفرح الناس بها كثيرًا(٤). ومن جانب أخر فقد اعتنى السلاطين المماليك باختيار نظار الدواوين عناية فائقة وبخاصة أولئك الذين يأخذون الضرائب بانتظام من التجار الواردين إلى الموانئ المملوكية. وقد أوردّ ابن مماتي تعريفًا بمستوي الضرائب قائلاً : "هذا كاتب يكون صاحب مجلس في الديوان يطالب المستخدمين فيما يجب عليهم رفعه من الحساب في أوقاته وينبه متولي الديوان على ما يجب استخراجه من المال في أعيانه ويقيم

(١) ابن واصل : المصدر السابق، ج٢، ص٤٧٣.

(٢) Poole : OP. Cit., P., 312.

(٣) احمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول في آثار الأُول، مطبعة عالم الكتب، (بيروت – لات)، ص٣٠٢؛ والأردب مكيال مصري للحنطة والشعير وهو يساوي ٧٣,١٢٥ كغم حنطة و ٥٦ كغم شعير. ينظر : فالتر هنتز : المكاييل والأوزان وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، (عمان – ١٩٧٠)، ص٥٨.

(٤) الحنبلي : شذرات ...، ج٧، ص٦.

الجرايد ويقابل بكل ما يرد عليه من حساب ويستوفيه ويخرج ما يجب تخريجه فيه"(١).

ونستنتج من ذلك تعدد مهام مستوفي الضرائب وجهده في استخلاص الضريبة مع الإشارة إلى دقة عناية الدولة في اختياره وثقتها به، ومن أبرز نظار الدواوين في العهد المملوكي الأمير سعد الدين بن إبراهيم بن المرّة الذي أرسله السلطان برسباي سنة ٨٣١هـ/١٤٢٨م لأجل ضرائب تجارة الهند في ميناء جدّة فقام بأعمال عمرانية واسعة وبنى فيها جامعًا وعندما لاحظ السلطان هذا الاهتمام منه بادر بإرسال قوة عسكرية لدرء الأخطار المحيطة بجدّة وحمايتها من السلب والنهب(٢). وكان مستوفي الضرائب يمثل السلطة المملوكية في منطقة حكمه وينفذ الأوامر والتعليمات الصادرة إليه من الناحية الإدارية(٣).

*** ***

ثانيًا : الهند . سياسة الهنود التجارية :-

لم تختلف الظروف والسياسة الاقتصادية التي اتبعتها الهند في سبيل تيسير تجارتها واستغلال مواردها كثيرًا عنها في مصر، فقد اهتم سلاطينها بالتجارة

---

(١) المصدر السابق، ص٣٠١.

(٢) ابن حجر : أنباء ...، ج٨، ص١٤٧.

(٣) وكمثال على ذلك فقد كتب السلطان الأشرف برسباي سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م إلى الأمير سودون المحمدي ناظر مكة أن لا يؤخذ من تجار الهند سوى العشر وأن يؤخذ من تجار مصر والتجار الشاميين العشرين، إذا وردوا ببضائع اليمن، وإذا جاء تجار اليمن ببضائع جدّة تصادر بضاعتهم كلها وذلك بسبب سوء المعاملة التي يفرضها حكام بندر عدن على تجار الهند فتركوا المرور بعدن واتجهوا إلى جدّة ولكن حمّلت عليهم ضريبة العشر ورسوم القبان وأجرة الناظر مما دفعهم إلى التذمر من المكوس العالية فخاطبوا رجال القلم والفقهاء في مصر ورفعوا هؤلاء بدورهم دعوى إلى السلطان تنص على استعدادهم لدفع أي مبلغ يفرض عليهم مقابل تعهد السلطان بتأمين طرق التجارة وحماية التجار بصرف هذه المبالغ على إرسال جيش مرابط في الموانئ، فأفتى الفقهاء الأربعة بجواز أخذ العشور وإنفاقها في المصالح، وقرئت الفتوى في موسم الحج. ينظر : الصيرفي : المصدر السابق، ج٣، ص٣٠٣ ؛ مورتيل : المرجع السابق، ص١٨٧.

والتجار[١] معًا وأقاموا علاقات تجارية وثيقة مع بلدان سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي كافة والدليل على ذلك هو أن الهند كانت أول من استجاب إلى المرسوم الذي أصدره السلطان المنصور قلاوون، فبعد سنوات قليلة من إعلانه جاءت إلى مصر سفارة من الهند تطلب إقامة العلاقات التجارية بين البلدين لتمهد لنشاط تجاري واسع بينهما[٢]. كما اتهم السلاطين الهنود بالتجار وسياسة التعامل معهم فقد تقرّبوا إليهم بالرعاية والعناية التامة بخاصة من اشتهر منهم بالأمانة والإخلاص، وعن ذلك فقد قدّر لنا الرحالة ماركوبولو في رحلته سجايا التجار الهنود تقديرًا حسنًا إذ قال عنهم : "إنهم أفضل وأنبل ما يمكن فهم لا يكذبون وإن كانت حياتهم متوقفة على الكذب"[٣].

ومن جانب أخر فان مصر لم تكن وحدها تقيم الفنادق والخانات لاستقبال المسافرين والتجار بل كان سلاطين الهند الإسلامية يلقون بالمثل التجار المصريين وغيرهم، الذين يفيدون إلى ديارهم ويلقون عندهم العناية والرعاية، فقد ذكر ابن بطوطة أن بلاد الهند آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين فإذا كان معهم الأموال الكثيرة فلا يخافون عليها، وترتب على ذلك أن يكون لهم فندق يسكن فيه جماعة من الفرسان ومدير للفندق، فإذا جاء وقت الليل جاء المدير ومعه كاتبه ليدون أسماء من يبيت به من التجار، وكان من عادة أهل الهند أن يضيّفوا زائرهم ثلاثة أيام إكرامًا لسلطان الهند وبالمقابل كان التجار يعطون ضريبة تسمى (حق بندر المرسى) للسلطات[٤].

*** ***

---

(١) A.B. Serjeant: The Portuques in the South Arabian Coast (Oxford – 1963), P., 12.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج١١، ص٤٢١ ؛ ابن الفرات : المصدر السابق، ص٢٦١.

(٣) ريتشارد . جي . ولش : ماركوبولو رحلاته، واستكشافاته، ترجمة حسن حسين الياس، منشورات دار البصري، (بغداد – ١٩٧٩)، ص١١٢.

(٤) ابن بطوطة : المصدر السابق، ص١٨٧،٢٥٢.

المبحث الثاني
الثوابت التجارية

أولاً : طرق التجارة وموانئها[١]:-

شهدت التجارة مع الهند انتعاشًا إضافيًا إثر تولي المماليك الحكم في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ومع انتهاء الحروب الصليبية أصبح الأوربيون شديدي الحرص للحصول على منتجات الشرق، الأمر الذي أعاد طرق التجارة المتبادلة في البحر الأحمر والبحر المتوسط والمحيط الهندي إلى ما كانت عليه قبل القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد في النشاط والحركة[٢] وكان من أهم الطرق التجارية الموصلة بين مصر والهند : الطريق البحري المعروف الذي يأتي من سواحل الهند ويستمر حتى يصل موانئ البحر الأحمر (القلزم) ومن هناك تنزل السفن حمولتها في ميناء عيذاب[٣] حيث تنقل البضائع على ظهور

---

(١) ينظر : الخارطة رقم (٣)، ص١٢٣.

(٢) وليد جرادات : الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر، دار الثقافة، (الدوحة – ١٩٨٦)، ص١٩.

(٣) هي بلدة صغيرة تقع على ساحل البحر الأحمر الغربي وهي مرسى للسفن القادمة من الهند والصين، وقد اختلف المؤرخون القدامى في أمر تبعيتها فقسمًا منهم ينسبها إلى البجاة إحدى نواحي الحبشة، والقسم الأخر ينسبها إلى حدود مصر وهو الأصح لأنها من أعمال مصر حقيقة، وصار ميناء هذه البلدة مسلكًا للتجار والحجاج معًا يمرون به حتى يصلون إلى الصحراء الشرقية، كما استمرت بضائع الهند تحمل من عيذاب إلى المحطات التجارية الأخرى حتى سنة ٧٦٠هـ/١٣٦١م إذ غالى حكام هذه البلدة في فرض الضرائب وسوء المعاملة على التجار الهنود الذي حاولوا التحرر من هذه المعاناة في تجارتهم. ينظر : محمد بن احمد بن جبير : رحلة ابن جبير، دار الكاتب اللبناني، دار الكاتب المصري، (بيروت – لات)، ص٦٧-٦٨ ؛ الحموي : المصدر السابق، م٤، ص١٧١ ؛ ابن دقماق : المصدر السابق، ص٣٥.

الجمال التي تتهادى في مشيتها لمدة ثلاثين يومًا لتصل إلى شواطئ النيل ثم إلى القاهرة ومنها إلى الموانئ المصرية[١].

والطريق الأخر يأتي من الصين فالهند ثم إلى الخليج العربي حيث يتفرع إلى البصرة وبغداد ثم يتجه في اتجاهين شمالاً إلى ديار بكر، وغربًا إلى دمشق، ومنها إلى الموانئ المملوكية على البحر المتوسط ثم يسير بمحاذاة الساحل إلى غزة ويعبر الصحراء إلى القاهرة. فضلاً عن ذلك كان هناك طريق أخر يبدأ من بولاق – القاهرة ويستمر بالنيل جنوبًا إلى ميناء قوص[٢] ومنها شرقًا إلى عيذاب على البحر الأحمر ثم يدخل المحيط الهندي والسواحل الهندية، إلا أن هذا الطريق بطل استخدامه منذ أوائل القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد لطوله وكثرة تفرعاته[٣].

وهكذا كان الطريق الأول (طريق البحر الأحمر) هو الأساس في التجارة بين مصر والهند وربما كان هذا الطريق معقدًا وصعبًا لكنه كان أقصر الطرق وآمنها[٤]. وبعدما كانت السلع والبضائع الهندية تصل إلى موانئ القاهرة ينقل بعضها إلى الموانئ الإيطالية بعد أن تجتاز جبال الألب وتنحدر إلى وادي الراين لتصل إلى ميناء بروج Broach ملتقى تجار أوربا[٥].

---

(١) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة – ١٩٧٠)، ص١٢٤.

(٢) تقع على الشاطئ الشرقي للنيل وكانت ملتقى القوافل من بلاد النوبة والحبشة وكانت المركز الرئيس للتجار القادمين من الهند. ينظر : القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج٣، ص٣٤١.

(٣) فهمي : المرجع السابق، ص١٣٣ ؛ ضومط : المرجع السابق، ص١٨٢.

(٤) كان هذا الطريق مسلكًا للحجاج لأكثر من مائتي سنة، وكان تجار الهند يردون إلى عيذاب ثم إلى قوص ثم إلى القاهرة، غير أنه لم يكد يخلو من صعوبات تعترض الملاحة فيه لاسيما المسافة الكبيرة من الهند إلى البحر الأحمر وما فيها من تيارات بحرية وهوائية متعارضة فضلاً عن كثرة الشعاب المرجانية في البحر الأحمر. ينظر : المقريزي : الخطط ...، ج١، ص١٢ ؛ ولش : المرجع السابق، ص١١٦ ؛
- Basham : OP. Cit., P., 228.

(٥) بن هاو : المرجع السابق، ص٤٥.

وبذلك استطاعت مصر أن تحافظ على تجارتها مع الهند وأوربا وتحتفظ بالوقت نفسه باليد الطولى في حروبها مع الصليبيين وتظل مركز الثقل في التجارة الدولية[1]، لذلك حاول المماليك الإبقاء على طرق التجارة مع الهند وأسرارها وقفًا عليهم وعدم تسربها إلى غيرهم فحظروا على جميع السفن غير الإسلامية من القيام بأي نشاط بحري في البحر الأحمر متذرعين بالحرص على سلامة وحماية الأماكن الإسلامية المقدسة، وأنزلوا أشد العقوبات بالسفن التي تتعدى ذلك الحضر وأدى ذلك إلى أن أصبحت الملاحة في البحر الأحمر حكرًا على السفن الإسلامية والصديقة[2].

ونظرًا لوقوع حدود الدولة المملوكية على سواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط فقد زخرت بعدد من الموانئ والمرافئ التجارية لتكون محطة لاستراحة التجار والسفن ولتكون ساحة للتبادل التجاري وعرض السلع، فضلاً عن الموانئ المذكورة كانت موانئ الإسكندرية[3] ودمياط[1] هي الوجه البحري للتجارة مع أوربا، وموانئ مصوع وسواكن فهي تختص بنقل تجارة الحبشة وبلاد النوبة[2].

---

(١) فلكا : المرجع السابق، ص٦.

(٢) ظل الأوربيون على جهل بأوضاع الملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر لمدة طويلة وكانت معلوماتهم مشوشة ويعوزها الكثير من الدقة. ينظر : جرادات : المرجع السابق، ص٨٠.

(٣) هي مدينة كبيرة لها أربعة أبواب موزعة على جهاتها ولها أسواق واسعة تعد من أكبر الأسواق في العالم لتصدير التوابل الهندية وكانت تسمى بمخزن العالم وتبعًا لأهميتها في التجارة فقد زارها الرحالة ابن بطوطة وأعجب بمرساها الطويل حتى أنه جعلها بنفس مرتبة الموانئ العالمية الأخرى التي زارها في الهند وغيرها، وبهذا يمكن القول أن القاهرة كانت مركز الثقل السياسي في حين كانت الإسكندرية العاصمة التجارية بلا جدال، إذ تقع فيها الأعمال التجارية والتبادلية بين التجار وكانت السلطنة المملوكية تؤكد على حكام مينائها بملازمته وتنظيف مرساها وبحره والمطالعة بما يتجدد فيه من منفعة ونمو. ينظر: ابن بطوطة : المصدر السابق، ص٢٠ ؛ رشيدة بسرور : الإسكندرية في عهد المماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الآداب، منوبة، (تونس – ١٩٨٦)، ص١١.

ومن موانئ البحر الأحمر الأخرى ميناء القصير الذي يقع من جهة الشمال عن عيذاب وتصله القوافل شرقًا من الصحراء حيث تستغرق سبعة عشر إلى عشرين يومًا(٣)، ثم ميناء الطور جنوبي غربي شبه جزيرة سناء حيث تأتيه السلع من جدّة(٤) وعدن(٥) وزادت أهميته بعد خراب ميناء عيذاب سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م فأصبح مركزًا للسلع الآتية من الهند(٦). وفضلاً عن تلك

---

(١) أحد الموانئ المهمة على النيل وتعرض لعدة هجمات من قبل الصليبيين أثناء الحكم الأيوبي لمصر ولكن تمت إعادة بناءه في العصر المملوكي حيث تنقل البضائع منه إلى منطقة الفرما ثم تحمل على الدواب إلى السويس الذي يقع شرق مصر نهاية البحر الأحمر حيث تحمل منه البضائع إلى الحجاز، وقد أنشأ فيه الأيوبيين ميناءًا تجاريًا. ينظر : الاصطخري : المصدر السابق، ص٣٠ ؛ المقريزي : الخطط...، ج١، ص٢١٢ ؛ اليوزبكي : المرجع السابق، ص٨٠.

(٢) فهمي : المرجع السابق، ص١٤١.

(٣) المرجع نفسه، ص١٤٣.

(٤) ازدادت أهمية ميناء جدّة في التجارة المصرية الهندية منذ سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م إذ أصبحت السفن التجارية القادمة من الهند تبحر إليها مباشرة دون المرور إلى ميناء عدن، وذلك بفضل جرأة تاجر هندي يدعى (الناخذاه إبراهيم) الذي اندفع بسفينته داخل البحر الأحمر دون أن يرسي في عدن فنزل بجدّة = =ولقي معاملة حسنة من رجال الشريف حسن بن عجلان (٧٧٥-٧٢٩هـ/١٣٧٣-١٤٢٦م) أمير مكة. وعندما ازدهر هذا الميناء وراجت تجارته خشية السلطة المملوكية من أن تفلت من يدها الضرائب والمكوس الكبيرة التي تشكل موردًا كبيرًا في ميزانيتها فوضعت جدّة تحت الإدارة المصرية المباشرة وصار يتوجه إليها كل عام أمير مملوكي للجباية بأمر السلطان. ينظر : مورتيل : المرجع السابق، ص١٨٣.

(٥) اشتهر ذكرها في المصادر التاريخية والجغرافية، وعلى الرغم من أنها تقع خارج السلطة المملوكية إلا أنها كانت المستودع الرئيس لتجارة الشرق ومثلت نهاية الخط الملاحي للسفن الهندية، ولكن أهمية هذا الميناء تناقصت بسبب سوء معاملة حكام اليمن الرسوليين لتجار الهند وفرضهم الضرائب الباهضة عليهم أواسط القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي. ينظر : احمد دراج : عيذاب من الثغور العربية المندرسة، مجلة المؤرخ العربي، ع٧، (بغداد – ١٩٨٧)، ص٦٣-٦٤.

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ...، ج٨، ص١٥٢.

الموانئ الرئيسة فقد ارتبط بها عدد من الموانئ والمرافئ الفرعية الأخرى والتي أدت دورًا في العلاقات التجارية بين مصر والهند كميناء ينبع كثير العمائر والأسواق وميناء أيلة على الطرف الشرقي بالبحر الأحمر في مقابلة القلزم(١).

أما أبرز موانئ الهند التجارية فهي الموانئ الواقعة على ساحل المحيط الهندي الطويل لاسيما ميناء كوجرات Gujarat وهي من أهم المناطق الإسلامية البحرية، إذ كان التجار العرب يترددون إليها منذ أقدم العصور ويعرضون بضائعهم في أسواقها الكبيرة. وبالقرب من كوجرات يقع ميناء ديو Diu الشهير الذي اكتسب أهمية كبرى في التجارة نهاية العصور الوسطى الإسلامية حيث استطونت فيه جاليات عربية، وكان أغلب سكانه يعملون في التجارة، وكان يصله من بلاد المماليك الذهب والفضة والأسلحة والأصواف الإيطالية ومجموعة من المواد الأخرى(٢). وعلى ذلك الساحل الطويل هناك ميناء كنباي Gambay الذي يستقبل السفن المصرية محملة بالخيول والقطن وعدد من المنسوجات لتعود تلك السفن بالتوابل والأحجار الكريمة وغيرها من البضائع الهندية(٣).

كما ضم ذلك الساحل الكثير من المراسيم والمدن التجارية الأخرى لاسيما كاليكوت Calicut(٤) وسندان Sindan ونلهورة Nalhoura وسومنات Somnat وغيرها(٥).

*** ***

---

(١) فهمي : المرجع السابق، ص١٤٠.

(٢) ضومط : المرجع السابق، ص١٩٨؛ Toussant OP. Cit., P., 71. ؛ Serjeant : OP. Cit., P., 12

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج٥، ص٧٣،٧٠ ؛ ضومط : المرجع السابق، ص١٩٨.

(٤) تقع على ساحل مليبار الشهير بإنتاجه لأصناف جيدة من التوابل، وتمثل السوق التجارية الكبرى للعرب في الهند، وسيطر عليه العرب تجاريًا بعد أن أقاموا فيها ووسعوا تجارتهم حتى صارت من موانئ الهند المشهورة على الرغم من صغر مينائها. ينظر : المعبري : المصدر السابق، ص٢٦ ؛ القزويني : المصدر السابق، ص١٢٣.

(٥) الندوي : تاريخ الصلات، ص١٦٤-١٦٥.

ثانيًا : أسلوب التعامل التجاري:-

أشارت المصادر إلى وجود طرائق متعارف عليها لتقييم ثمن البضاعة على الرغم من وجود نظام نقدي تجري على أساسه العمليات التجارية[١]. وبما أن التبادل التجاري قام في بداية أمره على استخدام المعادن النفيسة سواء كانت عملات ذهبية أم فضية فان ذلك لم يكن جديدًا في تجارة العصور الوسطى[٢]. وفي مصر استخدمت الدولة المملوكية النقود الكاملية نسبة إلى الملك الكامل الأيوبي ولمدة طويلة حتى وليّ الملك الظاهر بيبرس السلطنة فضرب الدراهم الظاهرية وجعل كل مائة درهم تحتوي على سبعين بالمائة ذهبًا وثلاثين بالمائة نحاسًا وجعل على وجه العملة رنكة أي شعار وهو يمثل صورة سبع. وظلت هذه الدراهم فضلاً عن النقود الكاملية تستخدم في مصر حتى سنة ٧٨١هـ/١٣٨٢م[٣]. وقد تغيرت العملات المملوكية تبعًا لكل سلطان سكّ عملة البلاد باسمه فعندما وليّ الظاهر برقوق السلطنة ضرب العملة باسمه، كما سكّ السلطان الأشرف برسباي الدنانير الأشرفية وهكذا[٤].

ومن جانب أخر فقد ظهرت الحاجة في بعض الأحيان بالعودة إلى نظام المقايضة في البيع والشراء بخاصة في مناطق صعيد مصر، وأوقات الأزمات وهذا ما أطلق عليه بالتعامل بالكودة[٥]، ولم تقتصر هذه الطريقة في التعامل على مصر وحدها بل كان بعض أهل الهند يقابلون عددًا من المواد والسلع بالمواد

---

(١) شوقي عبد القوي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت – ١٩٨٠)، ص٢١١.

(٢) توفيق اسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، ع٦، سنة ١٩٥٧، ص٣٨-٣٩.

(٣) المقريزي : شذور العقود بذكر النقود، تحقيق محمد السيد علي بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، (النجف – لات)، ص٣٠-٣١.

(٤) المصدر نفسه، ص٣١.

(٥) هي الودع الذي يستخرج من صدفات البحر، وكانت وسيلة للتعامل بالتجارة الداخلية. ينظر : المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيّال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة – ١٩٤٠)، ص٦٩.

الأخرى، كما استخدمت التوابل والفواكه والمعادن غير النفيسة أساسًا لهذا التعامل وكان التجار أيضًا في مصر يبادلون بضائع الهند والصين بمنتوجات مصر والحبشة الواردة إلى موانئهم، واستمر ذلك حتى سنة ٧٧٠هـ/١٣٧١م[١].

وكان التعامل بالنقود الذهبية معرضًا للغش والتزوير في كثير من الأوقات، فكان السلطان يعاقب جماعة من المدلسين الذين يغشون في العملة فيقطع أيدهم، كما حدث في عهد السلطان قايتباي سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م عندما قبض على مجموعة منهم وعاقبهم ثم أصلح العملة[٢].

أما في بلاد الهند فقد كانت عملة البلاد الأساسية تسمى (تنْكَة) [٣] وكان التعامل بها قائمًا طيلة القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد. فضلاً عن مجموعة من العملات التي سكّها سلاطين الهند الإسلامية بأسماء الخلفاء العباسيين في القاهرة كما مرَّ بنا.

*** ***

ثالثًا : السفن:-

أما ما يتعلق بالسفن التجارية فقد اختلفت تسمياتها وأشكالها وطريقة صناعتها بحسب طبيعة البحار التي تبحر فيها، فكانت سفن المحيط الهندي والبحر الأحمر كبيرة[٤] وتتكون من دفة واحدة وشراع واحد وليس فيها سطح ولكن مجرد غطاء ينشر فوق الحمولة بعد شحنها[٥]. وقد استخدمت طريقة مختلفة في صناعتها إذ كانت الألواح تخاط بحبال من ليف النارجيل وتشد بإحكام إلى أن تسد الثغرات جميعها وتتخلل الألواح بعيدان النخيل ثم تطلى بدهن

---

(١) المقريزي : إغاثة الأمة ...، ص٦٩.

(٢) ابن اياس : المصدر السابق، ج٢، ص٦١،٥٦.

(٣) التنكة تساوي ثمانون درهمًا مصريًا، وكانت التنكة هي العملة السائدة والمتداولة في عهد السلطان محمد تغلقشاه. ينظر : المقريزي : الخطط...، ج٢، ص١٧٤.

(٤) يذكر أن السفينة الهندية الواحدة المخصصة لنقل التوابل يمكنها أن توسق حمولة تفوق ثلاث مرات طاقة نقل ثلاث سفن إيطالية وأوربية آنذاك دلالة على حجمها وسعتها. ينظر : بسرور : المرجع السابق، ص٢٠٦.

(٥) ولش : المرجع السابق، ص٢٠ ؛ اليوزبكي : المرجع السابق، ص٨٨.

الخروع أو دهن القرش (الحوت) وهو الأفضل لسد الفتحات[١]. ولم تكن المسامير تستخدم في بناء هذه السفن (على عكس سفن البحر المتوسط) "وذلك خوفًا من تآكلها بماء البحر المالح"[٢]. وبما أن البحر الأحمر يحتوي على صخور وتيارات بحرية وأعاصير فقد تطلب ذلك تغييرًا في بناء السفن التي تسير فيه، فكان الخطر الوحيد الذي تخشاه السفن ذات الأحجام الكبيرة في مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي هو تقلب الظروف الجوية لذلك لم تكن السفن تبحر حتى تتأكد من الظروف الجوية المساعدة. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الرحلة إلى الهند من السواحل العربية ممكنة طوال العام حتى يمكن القيام برحلتين ذهابًا وإيابًا إلى الهند[٣]. وتبدأ الرحلة الأولى في شهر آذار من السنة ثم تبدأ الرحلة الثانية في شهر أيلول[٤].

وعن طبيعة الملاحة في البحر الأحمر يقول الرحالة ابن بطوطة : "هذا البحر
لا يسافر فيه في الليل لكثرة أحجاره وإنما يسافرون عند طلوع الشمس إلى غروبها ويرسون وينزلون إلى البحر فإذا كان الصباح صعدوا إلى المراكب..."[٥]. لذلك احتاجت تلك السفن أنواعًا معينًا من الأخشاب امتازت بصلابتها لتقاوم التيارات البحرية القاسية[٦].

وعلى الرغم من استعانة الربان والسفانين بالنجوم للتأكد من الطريق الذي يسلكونه إلا أنهم استخدموا البوصلة في طريقهم، فضلاً عن معرفتهم بانتظام

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق، ص٦٧-٦٨.

(٢) المسعودي : المصدر السابق، ج١، ص١٣٦.

(٣) عثمان : المرجع السابق، ص٩٢.

(٤) أرسلت هذه المعلومة مشكورة الدكتورة رشيدة بسرور من جامعة تونس، (تونس – ٢٠٠٠).

(٥) المصدر السابق، ص١٧٢.

(٦) فكانت هياكل السفن تصنع من خشب الساج وخشب جوز الهند المتين لأنه يكاد يمتنع عن التلف فإذا كان في ماء البحر يبقى مائتي سنة وإذا خرج من الماء شرع بالتلف. ينظر : المسعودي : المصدر السابق، ج١، ص١٢٤.

هبوب الرياح الموسمية[١]. وبذلك يتبين أن الطريق البحري وموانئه وسفنه آنذاك لا تكاد تختلف كثيرًا عمّا كانت عليه إبان المدد الإسلامية السابقة[٢].

*** ***

رابعًا : أهم الصادرات والواردات:-

إن دور مصر كوسيط تجاري بين الهند وأوربا يبين قلة ما كان يصدر منها إلى الهند فكان لا يتعدى على مجموعة من المنتوجات الزراعية والمصنوعات، لاسيما القطن والكتان والمنسوجات الحريرية إذ كانت صناعة النسيج في مصر من أهم الصناعات التي لقيت رواجًا عالميًا فكان أبناء الطبقات الراقية في الهند وأوربا يرتدون الملابس الحريرية المنتجة في مصر[٣]. هذا وقد صدّرت أنواعًا من الخيول فضلاً عن ما كان يصلها من عدد من المناطق كالذهب والمعادن النفيسة والأسلحة[٤] ومجموعة القراطيس التي اشتهرت بها مصر فضلاً عن مواد أخرى كمعدن الزبرجد ودهن البلسان[٥].

أما الواردات المصرية، فيبدو أن البضائع الهندية كانت عاملاً مساعدًا على رواج التجارة والتنافس البحري بين الأمم من أجل الحصول عليها بأنواعها المتميزة. وقد تنوعت هذه البضائع لتمتع أرض الهند بتوافر الكثير من المعادن

---

(١) اليوزبكي : المرجع السابق، ص٨٩.

(٢) لمزيد من المعلومات عن الطرق البحرية بين سواحل الهند وبلاد العرب ينظر :
- Hussain Ali Tahtooh : Commercial Relations Between The Arab World and India (3rd and 4th / 9th and 10th C.), St. and rows (U.K. – 1986), PP., 97-116.

(٣) حسن : المرجع السابق، ص١٢٩.

(٤) ضومط : المرجع السابق، ص١٩٨.

(٥) هو شجر ينبت في حصن بابليون في مصر وان جميع فوائده طبية. ينظر : بن هاو : المرجع السابق، ص١٦ ؛ فضلاً عن ذلك فقد صدّرت مصر في فترات سابقة للعصر المملوكي أنواعًا من الهماليج وهي أنواع من الحمير الجيدة لنقل البضائع والأمتعة. ينظر: اليوزبكي : المرجع السابق، ص٩٤.

والجواهر والمنتجات الزراعية التي زخرت بها أيضًا المتاجر الكبيرة التي اقترنت باسمها[1] ويقف في مقدمتها :

آ- التوابل :-

وتعد من أهم ما تنتجه أرض الهند بكميات ضخمة وفي مختلف الممالك الهندية لاسيما في سواحل مليبار إذ تتوافر فيها أشجار الفلفل العالية وتتدلى عناقيدها على الأغصان حتى إذا هبت الريح سقطت على الأرض فيجمعها الناس وعلى الرغم من أن حكام عدد من المناطق التي تتوافر فيها التوابل كانوا من الهندوس إلا أن ذلك لم يمنع من قيام صلات تجارية عميقة مع التجار المصريين الذين نقلوا بأنفسهم كميات كبيرة من التوابل إلى موانئ عدن والإسكندرية[2]. ومنذ القرن الخامس للهجرة / العاشر للميلاد أضيف إلى بلاد الإسلام أجزاء كبيرة من بلاد الهند (الفتح الغزنوي) ذات الشأن التجاري العظيم حتى أصبحت تجارة الشرق أكثر توسعًا وأهمية في الاقتصاد العالمي فصارت أغلب موانئ الهند في كوجرات والبنغال تحت حكم المسلمين[3].

تتألف التوابل الواردة من بلاد الهند من مواد مختلفة منها: الفلفل بأنواعه[4] والزنجبيل[5] والكافور[6] والقرنفل[1] والخولنجان[2] وغيرها.

---

(١) المقدسي : المرجع السابق، ص٤٧٤.

(٢) القزويني : المصدر السابق، ص١٢٣ ؛ المعبري : المصدر السابق، ص٣٥.

(٣) ميتز : المرجع السابق، ج٢، ص٢٧٤.

(٤) أجوده النظيف مر الدق والتراب السالم من العفونة، ومنه الفلفل الأبيض فإنه جنس يخالف الأول في لونه وشكله وهو يدخل في صناعة الأدوية ولا يدخل في الأغذية وأفضله ما نبل حبّه وقلة قشوره. ينظر : أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق البشري الشوربجي، ط١، مطبعة الغد، (القاهرة – ١٩٧٧)، ص٤١.

(٥) نوع من التوابل خالٍ من العفونة وطري ويستورد من سهول الهند ويأتي بعد الفلفل بحسب الكميات المصدرة منه. ينظر : الدمشقي : المصدر نفسه، ص٤٢ ؛ بسرور : المرجع السابق، ص٢١٦.

(٦) مادة تدخل في صناعة الأدوية والطيب هو يستخرج من شجرة سفحية بحرية بأطراف الهند وهو على عدة أصناف واستعماله يسرع الشيب ويمنع الرعاف والصداع. ينظر :

وعلى الرغم من تعددها فان الفلفل والزنجبيل ركز عليهما النشاط التجاري وحظيا باهتمام استثنائي في العقود التجارية، وكان الفلفل يفرز مثل بقية أنواع البهار، لفصل النوع الجيد من اسقاطه التي تقل قيمتها. وقد تأرجحت كمية الفلفل المعروضة في أسواق القاهرة والإسكندرية وربما يعود ذلك إلى مدى توافره في مصدره الهندي لأننا نفتقر إلى معطيات الكميات الجملية المردة من الهند ولا نملك معطيات عمّا يتركه المماليك لاستهلاكهم الخاص، أو ما يحول إلى موانئ بلاد الشام، ولكنها كانت كميات ضخمة عمومًا(٣).

وهكذا كانت تجارة التوابل الهندية من العوامل المهمة في ازدهار الاقتصاد، إذ درّت ربحًا هائلاً للطرفين بوصفها سلعًا يشتد طلب الناس عليها جميعًا(٤). وقد كانت لهذه التوابل خزانة خاصة في مصر تسمى بـ (خزانة التوابل) وخصص لها ناظر ينظر بأمر صادرها وواردها(٥). وكان انقطاع أو ندرة وصول هذه التوابل يسبب ضائقة اقتصادية شديدة وركودًا تجاريًا لمصر والمتاجر الأوربية على حد سواء، فمثلاً في سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٦م قلّ وجود الفلفل في القاهرة حتى بلغ سعر الرطل منه ستة وأربعون درهمًا وعندما

شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة كوستاموس، (القاهرة – لات)، ج١٢، ص٢٩٤،٢٩٢.

(١) نبات يجلب من بلاد سفالة الهند وأقاصيها له رائحة زكية جدًا وهو حار يابس ومقوٍ للقلب والكبد وقاطع للغثيان ويدخل في صناعة الأدوية. ينظر : النويري : المصدر السابق، ج١٢، ص٤٥-٤٦.

(٢) هو عروق متشعبة ذات عقد لونها بين السواد والحبرة شبيهة بأصول النوع الكبير من السّعد وهي حرفية الطعم وفيها مادة عطرية تجلب من الهند. ينظر : بسرور : المرجع السابق، ص٢٠٧.

(٣) بسرور : المرجع نفسه، ص٢١١،٢٠٧.

(٤) ك.م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز جاويد، دار المعارف، (القاهرة – ١٩٦٢)، ص٢١.

(٥) المقريزي : الخطط ...، ج٢، ص٤٢٢.

انفرجت الضائقة بقدوم الحجاج عن طريق عيذاب نزل سعره إلى خمسة دراهم للرطل الواحد[(١)].

وإن كانت نوعية هذه التوابل وجودتها مثار إعجاب تجار مصر والإسكندرية فان أسعارها العالية لم تكن موضع دهشة أحد في أسواق أوربا فقد استخدموها لحفظ الأطعمة خلال فصل الشتاء الطويل كما ازداد استخدامها في صناعة المراهم الطبية، فهي للتطيب والتطبب، وعن أهمية التوابل يقول أحد المستشرقين : "لعله ليس للفلفل الآن أهمية كبيرة بيد أنه كان في العصور الوسطى يقف مع قدم المساواة مع الأحجار الثمينة، فان الناس كانوا يجابهون مخاطر البحار ويقاتلون ويموتون في سبيل الفلفل"[(٢)].

ب- مواد الزينة والبخور :-

تأتي هذه المواد بالمرتبة الثانية من حيث استيرادها من الهند، وكثر استخدامها عند أهل القرون الوسطى اعتقادًا منهم بأنها تطرد الأرواح الشريرة، ومن هذه المواد : شجر العود المنتشر في مناطق كثيرة من بلاد الهند حيث كان يستخدمه السدنة في المعابد للتقرب من الآلهة[(٣)] ولا تقتصر استخدامات العود على التبخر فحسب بل أنه له استخدامات طبيبة متعددة وأجود أنواعه العود المندلي، والعود القماري[(٤)].

ومن المواد الأخرى التي تستخدم للتطيب والتعطر المسك الهندي الذي يجلب من هضبة التبت[(٥)] ثم العنبر[(١)] بأنواعه المتعددة وأصنافه المختلفة وأجوده العنبر الشحري وهو ما قذفه بحر الهند إلى ساحل الشهر من أرض الهند[(٢)].

---

(١) المقريزي : السلوك ....، ج٢، ق٣، ص٧٢٥ ؛ والرطل يساوي ٤٣٧,٢٠٦٧ غم. ينظر : هنتز : المرجع السابق، ص٣١.

(٢) بانيكار : المرجع السابق، ص٢١.

(٣) العود خشب شجر طيب الرائحة وهو معروف بالتجارة والطب والصيدلة وموطنه الهند وجاوه وسومطره، وامتحان جودته بشدة رائحته. ينظر : الدمشقي : المصدر السابق، ص٣٨.

(٤) النويري : المصدر السابق، ج١٢، ص٢٥-٢٦.

(٥) مادة تؤخذ من حيوان خاص يوجد في التبت وجزيرة سيلان. ومسك التبت أطيب أنواع المسك وأجوده رائحة. ينظر : الدمشقي : المصدر السابق، ص٣٦.

ج- مواد أخرى متنوعة :-

أشارت عدد من المصادر إلى كمية كبيرة من المواد القادمة من الهند التي لقيت رواجًا في أسواق القاهرة والإسكندرية، وشملت هذه المواد أنواعًا جيدة من الأخشاب كالأبنوس والساج والصندل التي كانت تصل دار صناعة السفن في السويس ثم أنواعًا متعددة من السيوف الهندية[٣]. فضلاً عن ما تميزت به الهند من تصديرها لأنواع معينة من الحيوانات الجميلة كالنمور والفيلة والببغاوات، وقد شاهد ماركوبولو البضائع الغريبة والحيوانات الجميلة في موانئ القاهرة حيث توزع منها إلى أنحاء العالم كافة[٤].

كما استوردت من الهند كميات من الأحجار الكريمة والجواهر التي اقتناها الملوك والسلاطين لعظم ثمنها وخفة محملها والمباهاة بها كالدّر والياقوت والمرجان والزمرد وغيرها[٥]. وقد وجد من السلاطين المماليك من تباهى بلبس خواتيم مطعمة بالياقوت والفيروز والزمرد، وتزين بالعطور القادمة من الهند[٦].

---

(١) هو مادة صلبة شهباء اللون تشبه الشمع إذا سخنت خرجت منها رائحة طيبة، ويرى البعض أنها مادة بحرية تستخرج من الحوت، أو هي مادة نباتية. ينظر : الدمشقي : المصدر نفسه، ص٣٧.

(٢) النويري : المصدر السابق، ج١٢، ص١٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج٢، ص١٢٨.

(٣) على الرغم من أن هناك مناطق عربية تشتهر بصناعتها للسيوف كالمشرفية، واليمانية، إلا أن الهند اشتهرت بصناعة أنواع متميزة منها حتى اكتسب بعضها اسم (السيف المهند). ولا يعرف بالضبط متى استعمل العرب سيوف الهند ولكنها اشتهرت أيضًا لدى عدد من شعراء العرب كالفرزدق وغيره، ولمزيد من المعلومات حول تصدير السيوف الهندية إلى بلاد العرب. ينظر :

- Tahtooh : OP. Cit., P., 186-189.

(٤) حسن حبشي : رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر، دار المعارف، (القاهرة – ١٩٦٨)، ص٧٨ ؛ ولش : المرجع السابق، ص١١٤.

(٥) الدمشقي : المصدر السابق، ص٣١.

(٦) عبد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغوري، مطبعة لجنة الترجمة والتأليف والنشر، (القاهرة – ١٩٤١)، ص١٤.

ولأهمية المنتجات الهندية في التجارة فقد أورد القزويني وصفًا شعريًا لها فقال :-

لعمري إنها أرض إذا القطرُ بها ينزل يصير الدّر والياقوت لمن يعطل

منها المسك والكافور والعنبر والمندل وأصناف من الطيب ليستعمل من يتفل

وأنواع الأفاويه وجود الطيب والسنبل ومنها العاج والساج ومنها العود والصندل

وإن التوتيا فيها كمثل الجبل الأطول ومنها الببر والنمر ومنها الفيل والدغفل

سيوفٌ مالها مثل قد استخنت عن الصيّقل وأرماح إذا ما اهتز لها الجحفل

فهـل ينكـر هـذا إلا الرجـل الأخطـل[1].

وهكذا يتضح من خلال ما سبق أن الميزان التجاري كان يميل لصالح الهند نظرًا لحاجة دول الشرق والغرب لمنتجاتها.

*** ***

---

(١) القزويني : المصدر السابق، ص١٢٨.

المبحث الثالث

دور تجار الكارم

في العلاقات المصرية الهندية

الكارمية : Karimi :-

وردت الكلمة في المصادر العربية على أشكال متنوعة منها (كارمي، أكارم، كارم) وليست هناك كلمة في اللغة العربية تحمل معنى يتعلق بنشاط الكارم التجاري، فخضعت الكلمة لدراسات عديدة فاختلف المؤرخون في تحديد معنى للتسمية[١] وعلى أية حال فهم مجموعة من التجار من قوميات مختلفة

---

(١) منهم من نسبها إلى دولة الكانم في السودان الغربي التي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، وسكانها من العرب ويدعون النسب العربي الإسلامي وكانت لهم علاقات ودية مع دولة المماليك. ولقي هذا الرأي دعم أغلب المؤرخين العرب في حين لم يحظ بقبول عدد من المستشرقين الذين أنكروا وقوع تصحيف بالاسم. ينظر : القلقشندي : ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، مطبعة الواعظ، (القاهرة – ١٩٠٦)، ص٢٥٣ ؛

- W.G. Fischel : The Spice Trade In Mamluk Egypt, J.E.S.H.O., Vol., I, 1960, P., 158.

وهناك من نسب الكلمة إلى لغة أهل جنوب الهند (التاميل) Tamil حيث وجد كلمة كاريام وتعني الأعمال أو الأشغال إذ كانت أعمال أهل تلك المناطق أغلبها تجارية. ينظر : س.د. جواتين : دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوصي، دار القلم، (بيروت – ١٩٨٠)، ص٢٩٠؛ S. Labib : "Karimi", EL2, Vol., 4, P., 40.

وقسم قال أن الاسم مأخوذ من عدد من أنواع المنتجات الهندية نفسها وهي Kurarima وهي لفظة أمهرية تفيد معنى الحبهان أو الهيل وهو نوع من التوابل. ينظر : صبحي لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، م٤، (القاهرة – ١٩٥٢)، ص٦.

ظهروا أواخر العصر الفاطمي واشتهروا بجلب البضائع النفيسة من الهند

في حين يضيف الباحث رأيًا أخر مفاده أن كلمة كارم من المحتمل أن تكون قد أخذت من المصطلحات التي أطلقت على المحطات التجارية القائمة في بلاد الرافدين، فمنذ الألف الثاني ق.م أقام الآشوريون عددًا من المراكز التجارية في آسيا الصغرى فطوروا نظامًا اقتصاديًا يضاهي ما نشأ في سهول دلتا النيل من مجتمع تجاري واسع، وأطلق على ذلك اسم كارُم Karum وتعني بالأكدية الميناء أو المركز التجاري أو المخزن، وبالآشورية تعني المركز الذي يعيش فيه التجار، إذ وجدت في بيوتهم وثائق تتضمن عقودًا تجارية تبين وظائف هؤلاء التجار الذين كانوا سماسرة يقومون بنقل البضائع، ويقرضون الناس بالأموال على سبيل الفائدة والائتمان لدرجة أن أي شخص يقرض الناس المال يطلقون عليه (كارمي)، ونحن نلمس بوضوح ذلك النظام التجاري عند تجار العصور الوسطى دون اختلاف. == ينظر : حسين ظاهر حمود : التجارة في العصر البابلي القديم، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة الموصل – ١٩٩٥)، ص٨٩ ؛

W.F. Leemans : Old Babylonian Merchant, Leiden, (Brill – 1950), P., 36.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : كيف انتقلت تلك النظم التجارية من بلاد الرافدين منذ ألفي سنة ق.م إلى مناطق شمال أفريقيا والمحيط الهندي في العصور الوسطى لتؤدي دورًا كبيرًا في الحياة الاقتصادية في حياة تلك الشعوب؟

ان ارتباط حضارة الرافدين وحضارة النيل وحضارة السند معروف، وتدلنا النصوص السومرية والأكدية منذ ٢٣٠٠ ق.م على وجود الفخار الهندي في مواقع عراقية قديمة كما نجد علاقات وثيقة بين الحضارات الثلاث طيلة فترات التاريخ. وكما هو معلوم أيضًا فإلى بابل القديمة تعود الكثير من المصطلحات التجارية وأسماء المكاييل والموازين ومنها انتقلت إلى الشعوب الأخرى التي طورتها. وفي العصر العربي الإسلامي استمرت العلاقات قائمة بين تلك البلدان وحاول الفاطميون مصر أن يستحوذوا على تجارة الهند من أيدي منافسيهم العباسيون في العراق وربما نجحوا في ذلك عندما سقطت الخلافة لترث مصر النظم الإسلامية والتجارية كافة وتسهم في تطويرها. وهناك دليل أخر على ما سبق وهو وجود تجار كارم في العصور الوسطى من أصل عراقي. ينظر : السخاوي : الضوء اللامع ... ج٥، ص١٥٣ ؛ نجيب ميخائيل إبراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم، ط١، دار المعارف، (القاهرة – ١٩٦١)، ص١٩٥؛ لومبارد : المرجع السابق، ص١٧٨؛ جواتين: المرجع السابق، ص٢٧٠؛ M. Wheeler: Civilization of Indus Vally and Beyond (London–1966), P., 64.

وبخاصة التوابل وتفردوا ببيعها بأسواق مصر، وأول إشارة في المصادر العربية تدل على ظهورهم يقدمها ابن أيبك الدودار عند حديثه عن تعرض سفن الكارم لهجوم قطاع الطرق سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م في العصر الأيوبي في حين أن نشاط تجار الكارم بلغ ذروته في العصر المملوكي إذ اقترنت تجارة المماليك باسمهم لما جلبوه من بضائع بهروا الشرق والغرب معًا بها، حيث توحدت قواهم التجارية دون أي تمييز عنصري بينهم وخلقوا نزعة تجارية منعت التجار الفرديين (العاديين) من منافستهم في تجارة الهند[١]. وغالبًا ما تحتاج التجارة إلى قوائم مكتوبة خاصة إذا كانت واسعة تمتد إلى مختلف الأماكن البعيدة، ولا نستطيع أن نعرف أحوال تجارة مصر والهند في العصور الوسطى من دون مساعدة وثائق ترسم لنا صورة توضيحية عن تلك التجارة[٢].

وعلى هذا الأساس فقد اشتهرت في تجارة العصور الوسطى وثائق الجنيزا القاهرية Geniza[٣] التي كتبت بين (٣٤٥-٦٦٣هـ/٩٦٥-١٢٦٥م) وكشفت لنا عن معلومات وفيرة فيما يتعلق بتجارة الهند وكانت أغلبها عبارة عن خطابات موجهة من التجار إلى أهاليهم في مصر والهند واليمن، وقد كتبت

---

(١) أبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدوداري : كنز الدّرر وجامع الغرر، ج٧، الدّر المطلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار أحياء الكتب، (القاهرة – ١٩٧٢)، ص٧١ ؛

- S.D. Goitein : A Mediterranean Society, (Los Angeles – 1967), Vol., I, P., 149.

(٢) محمد كريم إبراهيم : العلاقات التجارية بين عدن والهند في ق٦، ٧هـ/١٤،١٣م، مجلة المؤرخ العربي، ع٣٣، سنة ١٩٨٧، ص٢٢٥-٢٢٦.

(٣) هي مجموعة من الأوراق وجدت في معبد لليهود في الفسطاط احتوت على معلومات سياسية واقتصادية واجتماعية عن العصور الوسطى، وبموجب تعاليم اليهود فان الورقة التي يكتب فيها اسم الرّب لا يجوز أن تدنس بل تحفظ في حجرة خاصة بجدار المعبد واكتشفت في القرن التاسع عشر للميلاد. ينظر :-

- Goitein : From the Mediterranean to India, Documents Indian Trade, South Arabia and East African Coast From 11,12 C. Speculum, Vol., 39, April, 1954, P., 181.

بأيدي تجار من بلدان مختلفة[١]. ومما يجعلنا نعتقد بوجود صلة قوية بين وثائق الجنيزا ومصطلح الكارم منذ ظهوره قديمًا وحتى اضمحلاله نهاية العصور الوسطى الإسلامية هو أن هذه الوثائق كتبت أيضًا في أماكن عديدة خارج مصر لاسيما العراق واليمن والهند وبعضها جاء بآراء شرعية من اليهود القاطنين في تلك المناطق[٢].

وعلى أية حال فقد وجد في هذه الوثائق ما يدل على سيطرة تجار الكارم على جميع الأنشطة التجارية في مصر والهند لأكثر من ثلاثة قرون فنلاحظ التاجر الكارمي وهو في الهند يكتب لأسرته في مصر ويخبرهم بأنه سيجلب لهم سلعًا وبضائع نادرة ما في الكارم مثلها[٣] دلالة على تحقيق استقلالهم تحت نفوذ دولة المماليك فأعطوا شكلاً بارزًا للحياة السياسية والاقتصادية في مصر المملوكية[٤]. ومما يدل على حجم تجارتهم ما ذكره ابن جبير عن أحمال الفلفل في عيذاب والتي توازي التراب قيمة لكثرتها[٥]. ولم تقتصر تجارتهم على جلب التوابل فحسب، بل شملت المنسوجات والأخشاب والعطور ومواد أخرى متنوعة[٦].

وعندما أدرك السلاطين المماليك دور تجار الكارمية في تنشيط الروابط بين مصر ومناطق متعددة من الدول لاسيما الهند من خلال نقلهم لأخبار تلك الدول التي مروا بها أثناء تجارتهم[٧] قاموا بتخصيص الأساطيل البحرية

---

(١) وجدت أكثر من ثلاثمائة وثيقة تتعلق بتجارة الهند بشكل مباشر وهي موزعة في جامعات عديدة من العالم. ينظر : Goitein : Mediterranean … P., 10.

(٢) جواتين : المرجع السابق، ص١٩٣.

(٣) Goitein : New Light of the Beginnings of Karmi Merchants, J.E.S.H.O., Vol., I, 1959, P., 180.

(٤) Goitein : Ibid, P., 180-181.

(٥) المصدر السابق، ص٦٣.

(٦) Fischel : OP. Cit., P., 160-161.

(٧) المفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (باريس– ١٩٢٨)، ص٥٠.

لحمايتهم من قطاع الطرق في الثغور والموانئ[1]. كما أنشأت لهم مراكز يجتمعون بها لحل مشاكلهم وتصفية عقودهم التجارية في مختلف المدن التجارية في مصر، ومن أبرزها فندق الكارم[2] وسقيفة ابن العجان المطلة على النيل[3]. كما كان لهم رئيس يسمى شهبندر التجار أو الصدر الذي كان ينتحب من بين أغنى التجار وأكرمهم خلقاً، وقد اهتمت المصادر بذكر رؤساء التجار الكارمية بمختلف جنسياتهم وعددت مآثرهم الجليلة[4]. وكانت أرباحهم كبيرة بالمقارنة مع أرباح التجار العاديين في تلك المدة فإذا قرأنا نصًا واحدًا من نصوص وثائق الجنيزا سنحكم على أن أرباحهم كانت خيالية أو عالية[5]، وليس أدل على ذلك ما جباه ناظر جدّة من سفن الكارم خلال سنة واحدة وقدّر بسبعين ألف دينار، أو مساهمتهم في حل الأزمات السياسية والاقتصادية التي تعرضت لها دولة المماليك في أوقات الحروب والنكسات[6]، بل حتى أنهم قدّموا الهدايا الثمينة إلى

---

(١) المقريزي : السلوك ...، ج١، ق٢، ص١٥٨.

(٢) وهو في الإسكندرية وألحق به جامعًا للصلاة وخانًا لوضع البضائع، والجدير بالذكر أن أول من بنى فندقًا للكارم هو الأمير تقي الدين عمر ابن عم صلاح الدين الأيوبي. ينظر : ابن دقماق : المصدر السابق، ص٤٠.

(٣) ابن دقماق : المصدر نفسه، ص٥٠.

(٤) من أبرز رؤساء تجار الكارم في العصر المملوكي : عمر بن محمد الدماميني (ت ٧٠٧هـ/١٣٠٧م)، والصدر عز الدين الكولمي (ت ٧١٣هـ/١٣١٣م)، وتاج الدين بن محمد الدماميني (ت ٧٣١هـ/١٣٣١م)، والصدر برهان الدين المحلي (ت ٨٠٦هـ/١٤٠٣م). ينظر : المقريزي : السلوك...، ج٢، ق٢، ص٣٤٠ ؛ ابن حجر : الدّرر ...، ج٤، ص٢١٩ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ...، ج٩، ص٢٨٩ ؛ الذهبي : العبر في خبر من غبر، ط١، دار الكاتب، (بيروت – ١٩٨٨)، ج٤، ص٣٧.

(٥) E. Ashtor : Studies on the Leavanting Trade in the Middle Age, (London – 1976), P., 250.

(٦) على سبيل المثال قرضهم للسلطان الناصر محمد في حربه ضد المغول سنة ٧١١هـ/١٣١١م وقرضهم للسلطان الظاهر برقوق مبلغ مليون درهم في حربه ضد تيمورلنك، ومساعدتهم للسلطان قايتباي بأربعين ألف دينار في حملته ضد العثمانيين، فضلاً عن افتدائهم للأسرى المسلمين أثناء الحروب الصليبية. ينظر: المقريزي : السلوك

السلاطين ووثقوا علاقتهم مع سلاطين مصر والهند وصاروا طبقة مستقلة بذاتها[١] وبناءًا على ذلك فقد خصص المماليك لهم ناظرًا خاصًا يدعى (مستوفي البهار والكارمي) يهتم بتحصيل ما يصل من التوابل والبضائع الأخرى التي يجلبها التجار الكارميون[٢].

لقد أحصت المصادر ما يقرب من مائتي شخصية من تجار الكارم ومن أسر مختلفة كالسواملي والكويك والدماميني والخروبي[٣] وغيرها وكانت تجارتهم وراثية إذ يتعلم الابن الأصول التجارية من خلال تجواله مع والده ثم يبدأ بإدارة أعماله ويصبح تاجرًا محترفًا[٤].

ومن هؤلاء التجار :

١- **ابن العدل رضي الدين المصري الواسطي التاجر السفار**، ولد سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م وسمع صحيح مسلم ونشر علمه وفقهه في مصر ودمشق وعدن وخلّف أموالاً عظيمة بالإسكندرية، توفي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م[٥].

٢- **التاجر الكبير أبو سويد التكريتي**، ذو الأموال الكثيرة وكان محترمًا لدى السلطان الظاهر بيبرس إذ كان يجله ويكرمه لأنه قد أزدى إليه

...، ج٢، ق١، ص١٠٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ...، ج١٠، ص٢٧١؛ ابن أياس : المصدر السابق، ج١، ص٣٠٢،٣٦٧ ؛ ابن جبير : المصدر السابق، ص٢١٥.

(١) الخزرجي : المصدر السابق، ج٢، ص١٣٩.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج٤، ص٣٣ ؛ ضوء الصبح...، ص٢٥٣.

(٣) الخروبي نسبة إلى الخروبة منطقة تقع بين العريش ورفح وهي من محطات البريد في القاهرة. ينظر : المقريزي : البيان...، ص٣.

(٤) Ashtor : A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages, (London – 1976), P., 300.

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ...، ج٧، ص٢٢١ ؛ الحنبلي : شذرات ...، ج٥، ص٣١٥.

جميلاً قبل أن يتولى السلطنة، وكان كثير البر والصدقات، توفي سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م[١].

٣- **التاجر الإسكندري عزالدين بن عبد العزيز بن منصور**، كان أبوه يهوديًا ثم أسلم فسافر وعبر الهند وقدم مصر ببضاعة قيمتها أربعمائة ألف دينار وكان له بر وصدقات، وكان سفارًا ورحالاً وسبق ابن بطوطة في زيارة الهند بخمسين سنة، توفي سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م[٢].

٤- **التاجر نجم الدين عبد الرحيم بن القاسم الرحبي**، باني التربة المشهورة بمنطقة المزة والتي جعل لها مسجدًا وأوقافًا وكان مرضيًا عند السلاطين والأمراء جميعهم، توفي سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م[٣].

٥- **محمد بن مسلم بن احمد الباليسي**، كان أبوه حمالاً ثم كثر ماله فصار من كبار التجار في مصر، يرحل عاملوه إلى الهند والحبشة والتكرور ويجلبون له الأرباح الكثيرة حتى فاقت شهرته ومكانته المالية والتجارية حدود الدولة المملوكية، ويتضح ذلك مما قالته عدد من المصادر عنه من أنه كان أعظم تجار الكارم مالاً ولم يعرف أحد في مصر أكثر منه مالاً وكان إجماع الناس على ذلك حتى قال تجار الهند : "ليس في بلادنا من هو أكثر مالاً منه غير تاجر كافر يقاربه بالمال"، توفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م وورثه أبنائه فكانت حصة الذكر منهم مائتا ألف دينار[٤].

٦- **التاجر علي بن عبد العزيز بن احمد بن محمد بن علي المتقي الصلاح المصري**، ويعرف بالخروبي وهو من أعيان التجار بمصر،

---

(١) أبو الفدا الحافظ الدمشقي بن كثير : البداية والنهاية في التاريخ، ط١، دار ابن كثير، (بيروت – ١٩٦٦)، ج١٣، ص٢٦٢.

(٢) المقريزي : السلوك ...، ج٢، ق١، ص١٣٣.

(٣) ابن كثير : المصدر السابق، ج٤، ص١٧١.

(٤) ابن حجر : أنباء ...، ج٦، ص٩ ؛ لبيب، المقال السابق، ص٣٠-٣١.

حج مرات عديدة وكان ذا مروءة وشهامة، توفي سنة ٨٠٢هـ/١٤٠١م(١).

٧- **التاجر محمود بن محمد بن قطب**، أحد تجار الهند وكان سفيرًا لسلطان كلبركة إلى البلاد العربية الإسلامية، توفي في مكة سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م(٢).

٨- **التاجر أبو القسم بن محمد بن علي المصري الأصل**، استقر في مكة وورث التجارة عن أبيه الذي خلّف أموالاً كثيرة ونمّاها في التجارة الكارمية وتركها لبنيه بعد موته، توفي سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م(٣).

٩- **التاجر ابن رواحة**، عرف بغناه الواسع وتجارته الكبيرة وكان يملك خزانة للسلاح، وكان يستطيع تجهيز مائة جندي(٤).

١٠- **التاجر محمود بن احمد الخواجا الكمال الكيّالي**، يقال له ملك التجار، لقيّ ابن حجر العسقلاني في القاهرة سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م وأخذ عنه ثم زار كلبركة من بلاد الهند واختص بها وثبت(٥).

١١- **حسن بن إبراهيم البدر بن البرهان المناوي الأصل القاهري**، التاجر بن التاجر، ويعرف بابن علبية (مصغر علبة)، حفظ القرآن الكريم وأقبل على التجارة وكان حاذقًا فيها، توفي سنة ٨٨٩هـ/١٤٨٤م في بولاق(٦).

١٢- **علي بن عبد الرحمن النضاري**، أحد تجار الكارم اليمنيين، وكان له مال متكاثر وعدة سفن تجري في بحر الهند وتأتيه بأصناف البضائع

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ...، ج٥، ص٢٤٠.
(٢) المصدر نفسه، ج١٠، ص١٤٧.
(٣) المصدر نفسه، ج١١، ص١٣٧.
(٤) بسرور : المرجع السابق، ص١٢.
(٥) السخاوي : الضوء اللامع ...، ج١٠، ص١٤٤.
(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص٩٠.

الهندية، وكانت له دائرة متسعة جدًا من التجار، وذا إحسان إلى الناس، توفي سنة ٩٦٦هـ/١٥٥٨م(١).

*** ***

عوامل ضعف التجارة المصرية الهندية :

وصلت عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندي البضائع النادرة إلى مصر من الهند، وتهافت الأوربيون على شرائها. فأصبحت مصر مركزًا تجاريًا عظيمًا وقد قال أحد المستشرقين في ذلك : "إن من له السيادة على القاهرة يمكنه أن يسمي نفسه أيضًا ربّ العالم المسيحي، وسيد ورب جميع الجزر والبلاد التي تنتج التوابل فلا يمكن استيرادها وبيعها إلا من بلد السلطان لأن القاهرة تتمتع بموقع متميز ... لذلك ينبغي أن نكون في علاقات جيدة مع السلطان إذا أردنا أن نبيع ونشتري أو أردنا الذهاب إلى المقدس للحج" (٢).

وكان لابد لهذه التجارة أن تجعل من مدن مصر التجارية مدنًا عظيمة ذات سمعة عالية وتجعل أسواقها من أحسن وأبهى ما يراه المرء إذ تجد فيها كميات هائلة من البضائع الهندية لاسيما التوابل(٣).

لقد كان دور السلع يوازي في أهميته دور الأفكار والمبادئ، فوجدت طبقة من التجار والعامة من أهل مصر قدرًا من الراحة والاطمئنان في الحياة. ومن هذا المعنى استطاعت القاهرة أن تنعم بمستوى مرتفع من المعيشة(٤). وبالمقابل كان لتشجيع سلاطين الهند الإسلامية للتجارة مع مصر أثره في جعل موانئ الهند لاسيما كوجرات ومليبار، تحصل على ثراء كبير مكنها من الدفاع عن موقعها ومكانتها(٥). ولكن سرعان ما انتكست تجارة المماليك العظيمة جراء سياسة عدد من السلاطين الذين احتاجوا إلى الأموال الكثيرة لتأمين حياتهم

---

(١) قطب الدين محمد بن احمد النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني، ط١، دار اليمامة، (الرياض – ١٩٦٧)، ص١٣١.

(٢) فييت : المرجع السابق، ص١٠١-١٠٢.

(٣) حبشي : المرجع السابق، ص٩٧.

(٤) فييت : المرجع السابق، ص١٠٨.

(٥) Serjeant : OP. Cit., P., 12.

ودولتهم فغرتهم الأرباح الكبيرة لتجارة الهند فطبقوا نظامًا احتكاريًا قاسيًا على البضائع الهندية وسوغوا سياستهم هذه بدعوى من مرور البلاد بأزمات سياسية وحالات من المجاعة والقحط مما أدى إلى غلاء أسعار المواد والبضائع(١). ففي سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م أصدر السلطان الأشرف برسباي مرسومًا إلى الثغور كافة يأمرهم بأن لا ينصب قبان لوزن بضاعة ما لأحد من التجار ومنعم من البيع والشراء في البهار وجعلها حكرًا له، وألزم تجار أوربا بالشراء بالسعر الذي يحدده هو فكان أن جعل الحمل من التوابل يباع بمائة وعشرين دينارًا بعد أن كان يباع بثمانين دينارًا(٢). وبهذا كرّس السلطان برسباي جلّ اهتمامه على تجارة الهند واستخلص منها أرباحًا جديدة وإضافية(٣). ويبدو أن السلطان برسباي لم يكن مقتنعًا بما تجبيه بلاده من ضرائب التجارة الهندية ولذلك فقد بحث عن مصدر جديد أخر جعله يصبح فيما بعد السلطان الوحيد الذي يملك أموالاً كثيرة، وفعل ذلك لما لم يجد موردًا أخر يفرض عليه نوعًا من الضرائب، فلم يفرض مثلاً شيئًا على القطاع الزراعي أو الصناعي في دولته، وربما فعل ذلك ليدخل التاريخ كأغنى سلطان في الدولة المملوكية(٤).

وقد جاءت سياسة الاحتكار هذه في وقت كانت فيه أحوال الناس والعامة بديار مصر والشام متدنية لقلة مكاسبهم، وقد شمل الخراب الكثير من مدن مصر وأريافها وبلغ من شدة فقرهم أنهم كانوا يبيعون بالغلال والمواد الأخرى سلعة بسلعة (العودة إلى نظام المقايضة) وذلك لعدم وجود الذهب والفضة والأموال

---

(١) على سبيل المثال الطاعون الذي أصب مصر سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م، وغلاء الأسعار في زمن السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٦م. ينظر : السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص٥٠٠ ؛
القرماني : المصدر السابق، ص٣٠٥.

(٢) الصيرفي : المصدر السابق، ج٣، ص١٤٥ ؛ والحمل يساوي ٥٠٠ رطل أي ٢٢٥ كغم وهو مقدار ما يحمله البعير من الفلفل. ينظر : هنتز : المرجع السابق، ص٢٧.

(٣) Poole : OP. Cit., P., 339.

(٤) عن السلاطين والأمراء الذين تركوا وراءهم ثروات كبيرة من المماليك. ينظر : المقريزي : الخطط...، ج٢، ص٤٠٤ ؛ ابن اياس : المصدر السابق، ج١، ص٥٠.

التي احتكرها السلطان[1]. وفي الواقع مثلت هذه السياسة الاحتكارية ردة حضارة إلى الوراء فاضطربت أحوال الناس خلاف ما اعتادوا عليه من حياة طبيعية كريمة بعد حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث الأوضاع الاقتصادية المزدهرة[2].

ومن جانب أخر لم تكن السفن الهندية أو الأوربية مستعدة بأي حال من الأحوال لقبول أية ضريبة جديدة تفرض عليها إذ كانت مثقلة بما فيه الكفاية بالضرائب، والحقيقة أن تلك السفن كانت تمر ببحار بعضها يخضع لدولة المماليك فتتبعوها بالضرائب من ميناء لميناء ومن سوق لسوق حتى أصبح ما يجبى منها أضعاف ثمن البضاعة الأصلي، وهكذا تمادى المماليك في تطبيق هذه السياسة الاحتكارية والتشديد فيها حتى بلغ السلطان في سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م أن جماعة من التجار نقلوا فلفلاً من دون علمه إلى دمشق، فانزعج وأمر باستدعائهم ومعاقبتهم[3]. وعندما لاحظ تكدس البضائع الهندية في بلاده من دون أن يشتريها أحد من التجار الأجانب قرر خفض السعر قليلاً ولكن ذلك لم ينفع فاتخذ إجراءات لإرغامهم على الشراء[4] فعاد إلى تخفيض السعر مجددًا وحسّن من معاملته للتجار وكان ذلك طبيعيًا لتمهيد سياسته الجديدة التي لم تمنع التجار الأوربيين من قطع علاقاتهم التجارية مع دولة المماليك، فأرسلت البندقية على أثر ذلك سفينة لجمع تجارها كافة من الإسكندرية بعدما فشلت المساعي القنصلية[5].

وبعدما رفع السلطان برسباي عشور التجارة الهندية من الثلث إلى النصف جاء من بعده السلطان جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) وجعل ثلاثة أرباع العشور خالصة له مما أضعف التجارة وعسّف بالتجار والناس معًا[6]، ثم

---

(١) المقريزي : السلوك ...، ج٤، ص٧٠٥.

(٢) الحجي : المرجع السابق، ص٣٣١.

(٣) الصيرفي : المصدر السابق، ج٣، ص٣٣٨.

(٤) الصيرفي : المصدر نفسه، ج٣، ص٣٥ ؛ ابن حجر : أنباء ...، ج١، ص٣٤٨.

(٥) لبيب : المقال السابق، ص٤٥.

(٦) مورتيل : المرجع السابق، ص١٨٧.

جاء السلطان قيتباي في سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م فتمادى بسياسة الاحتكار فأصدر مرسومين تعلق الأول بالتدخل بأرباح تجارة مكة الخارجية(١) وتعلق الثاني حول تسعير التوابل السلطانية حيث جعل الحمل منها بمائة وعشرة دوكات بندقية، فحتم على البنادقة بالشراء، ولما رفضوا حبسهم بفندقهم يومين ثم أمر السلطات بإخلاء سبيلهم بعد أن يدفعوا له مبلغ مائة دوك للحمل الواحد وكان ذلك سنة ٨٨٤هـ/١٤٨٠م، وذكر التجار أنهم يلاقون المصير نفسه في كل سنة. هذا ولم تكن أسعار التوابل مصدر شكوى التجار وحدها فحسب بل ترددت الشكوى حول رداءة التوابل وغشها حتى أرسل السلطان إلى دوق البندقية برسالة يظهر اهتمامه البالغ بنقاء التوابل السلطانية من الغش(٢).

ومن جانب أخر لم يستثن تجار الكارم من سياسة الاحتكار التي مارسها السلاطين المماليك على تجارة الهند، ففي سن ٨٣٣هـ/١٤٢٩م جمع السلطان الأشرف برسباي تجار الكارم من الثغور والموانئ جميعها وأخذ منهم عهدًا بأن لا يبيع أحد شيء من التوابل إلى تجار أوربا وهدد بالعقوبات الصارمة إذا لم يمتثلوا لذلك، فاقتصر عملهم على جمع التوابل وتسليمها في خزانة السلطان(٣) فأحجم ذلك من نشاطهم باستثناء عدد ممن وثق فيهم السلطان وسخرهم بالمتاجرة لهم(٤). ولاشك أن هؤلاء التجار كان لهم دور في عمارة البلاد وتقدمها فكان من المفروض أن يترفع السلطان عن مزاحمتهم في المتاجر وألا يضيّق عليهم(٥) كما

---

(١) أصدر هذا المرسوم سنة ٨٨١هـ/١٤٧٧م أذن فيه لشريف مكة بأخذ مبلغ ألف دينار أشرفي من تركة التاجر الذي يموت بمكة أو جدّة دون أن يرثه أحد أما ما زاد عن الألف دينار فيرسل إلى خزانة السلطان بالقاهرة. ينظر : مورتيل : المرجع نفسه، ص١٨٦.

(٢) فهمي : المرجع السابق، ص١٨٦.

(٣) الصيرفي : المصدر السابق، ج٣، ص٣٣٧،١٨٥.

(٤) فمثلاً أعطى السلطان برسباي مبلغ ستون ألف دينار إلى كبير التجار نور الدين الطنبذي ليتجر له فيها فعسّف على الناس وغالى في احتكاره للفلفل والسكر. ينظر : ابن حجر : أنباء ....، ج٨، ص١٦٩.

(٥) ابن عبد الله : المصدر السابق، ص٥٧-٥٨ ؛ وفي ذلك يقول أحد الحكماء : "إذا شارك السلطان الرعية في تجارتهم هلكوا". ينظر : الدمشقي : المصدر السابق، ص٦١.

حذر عدد من المؤرخين من خطر تعسف السلطان في جباية الضرائب الأمر الذي يؤدي إلى خراب البلاد وفساد الرعية[١].

وعلى أية حال فقد تضاءلت مكانتهم وتزعزعت مصالحهم، إلا أن أفرادها بقوا مرتبطين بعضهم ببعض فأصبحوا تجارًا عاديين إذ لا نسمع لهم ذكر في المصادر بعد سنة ٨٨٩هـ/١٤٨٤م فكان أخر تاجرين ذكرهما ابن تغري بردي هما : علي بن محمد القليوبي وعلي بن بدرالدين حسن بن عليبة الذي توفي سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م[٢]. في حين كان عدد منهم قد حاول التعامل سرًا مع الأجانب وهرّبوا البضائع والتوابل إلى أوربا، ولما اشتدت الرقابة عليهم هجروا مصر إلى الأماكن الأخرى مثل الحجاز والبحر الأحمر ومارسوا تجارة متواضعة نسبيًا فيها[٣].

كما كان لكشف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م ثم وصول فاسكو دي كاما إلى سواحل الهند في كاليكوت سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م من أبرز الحوادث التي أضرت بالتجارة المصرية الهندية والتي أسدلت بها ستائر العصور الوسطى، وحال دخول البرتغاليين إلى المياه الهندية غدت أطماعهم أشد ضراوة فأعلن دي كاما Da Cama أنه أحق بالسيادة على المحيط الهندي فأغلق الإبحار بوجه السفن المصرية والإسلامية ومنعهم من أداء التجارة في المحيط الهندي[٤].

وقد كانت محاولة البرتغاليين بمثابة ثورة كبرى في عالم التجارة الدولية، ومبعث رعب كل من القاهرة ودلهي والممالك الإيطالية وصارت مقاومة هذه المحاولة عبئًا ثقيلاً وقع على عاتق العثمانيين فيما بعد[٥]. وقد بدأ البرتغاليون

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق، ج١، ص٢٢٤.

(٢) الصيرفي : المصدر السابق، ج٣، ص٣٣٧ ؛ Labib : OP. Cit., P., 643.

(٣) فهمي : المرجع السابق، ص١٣ ؛ بسرور : المرجع السابق، ص٧٤.

(٤) G.S.P. Freeman – Grenville : The East African Coast (Oxford – 1966), P., 57.

(٥) نادية محمود مصطفى : العلاقات الدولية في الإسلام، المعهد العالمي للعلاقات الدولية (القاهرة – ١٩٩٦)، ج١٠، ص١٤٣.

بتنفيذ مخططهم عندما أغرقوا سفن التجارة المصرية في ميناء كاليكوت سنة ٩٠٧هـ/١٥٠٦م وبضمنها سفينة خاصة للسلطان قانصوه الغوري محملة بالتوابل.

وهكذا أخذ البرتغاليين يفرضون سياسة الحصار الاقتصادي على السفن المصرية والإسلامية من الاتجاه نحو السواحل الهندية وأدى هذا الحال إلى اشتداد الأزمة المالية وإفقار مصر وخراب موانئها فتعطل ميناء الإسكندرية وعلى أثره تعطلت الدواوين التجارية(١) بسبب عبث البرتغاليين وتهديداتهم، وبعد موقعة ديو الفاصلة سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٩م كانت أسواق القاهرة والإسكندرية قد أقفرت تمامًا من التجارة الهندية وفقدت مصر كل ما يدخل بخزانتها من مكوس هذه التجارة مما دفع السلطات إلى فرض الضرائب الباهظة على الناس والعامة الذين اشتد غيظهم وسخطهم على حين كانت البلاد بحاجة إلى مزيد من الجهود والأموال لصد خطر العثمانيين الزاحفين نحو مصر، فلا غرابة أن سقطت البلاد فريسة لهم بعد معركة ديو بتسع سنوات(٢).

□□□ □□□

---

(١) ابن أياس : المصدر السابق، ج٣، حوادث سنة ٩٢٠هـ.

(٢) أما البرتغاليون فقد سيطروا على المحيط الهندي قرابة القرن والنصف يكسبون خلالها في كل سنة مليون ونصف ديوكًا ذهبية يبعثون ثلثها إلى لشبونة، فاغتنوا غناءً كبيرًا وازدهرت بلدان شواطئ المحيط الأطلسي والهندي في حين ركدت ثغور البحرين الأبيض المتوسط والأحمر. ينظر : النهروالي : المصدر السابق، ص١٨-٢٠.

الفصل الرابع
الصلات الثقافية والدينية

استمرت الصلات الثقافية بين مصر والهند إلى جانب العلاقات السياسية والتجارية، وقد أضاف دخول الإسلام إلى الهند الكثير من الأهمية في الشأن العربي. ولم تمض إلا مدة قصيرة من وصول الإسلام إلى الهند إلا وكان الرحالة والسفراء والعلماء قد وفدوا إلى الهند وأثروا فيها(١).

عوامل الصلات الثقافية :-

إن ما تمتع به البلدين من تراث عميق وحضارة أصيلة، فضلاً عن انتشار الإسلام فيها منذ وقت مبكر كان سببًا مباشرًا في التقائهما ثقافيًا وفكريًا الأمر الذي حفّز العلوم والآداب الإنسانية إلى الارتقاء والسمو، ووفر الأرضية الخصبة لنمو جميع أشكال العلاقات وزاد من تطورها. كما أن تعرض عدد من البلاد العربية الإسلامية إلى الغزو المغولي الذي دمر عددًا من المراكز الحضارية والثقافية أدى إلى أن يفد العلماء والمثقفون على أماكن أكثر هدوءًا وأمنًا لممارسة نشاطهم الثقافي والفكري، فوجدوا في مصر والهند مبتغاهم فبعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد أصبحت مصر "أم الممالك وحاضرة البلاد ودار الخلافة ومنبع الحكمة ومحط الرجال الفضلاء، إذ يتبعها كل شرقٍ وغربٍ..."(٢). ومن ذلك نستطيع القول أن مصر بعد انتقال الخلافة إليها تزعمت العالم العربي والإسلامي فكريًا وثقافيًا وبالمقابل فان بروز الهند كإحدى مراكز الثقافة الإسلامية في تلك المدة كان أمرًا متوقعًا(٣) فهي بلد الفلسفة والطب

---

(١) Maqbul Ahmed : OP. Cit., P., 23.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج٣، ص٤٢٠.

(٣) S.M. Ikram : Muslim Civilization in India, Columbia Press, (U.S.A. – 1964), P., 112.

والحكمة، وللهنود السبق على كثير من الأمم في هذه المجالات[1]. كما يجب أن لا نغفل سببًا أخرًا أسهم في اتصال البلدين ثقافيًا في العصر المملوكي وهو وجود سلاطين وحكام يرعون العلم والعلماء ويشجعون النهضة العلمية والأدبية في الدولتين مما خلق جوًا فكريًا واتصالاً وثيقًا لم يألفه البلدان من قبل.

*** ***

(١) ابن الفقيه : المصدر السابق، ص١٥ ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص٥.

المبحث الأول

طبيعة العلوم ومراكز التعليم

في الواقع كان هناك نوعان من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في نشاطهم الثقافي والفكري فمنها علوم دينية تتعلق بالقرآن الكريم وتفسيره، وعلم الحديث، والفقه وأصوله، والتصوف، وعلوم اللغة العربية... الخ. ومنها علوم عقلية تعنى بالطب والفلك والكيمياء والفلسفة والرياضيات وغيرها، وعلى هذا فان العلوم الدينية (النقلية) ظهرت بفعل وتأثير ثقافة العصر والتي كانت ثقافة عربية إسلامية محضة أي أنها مختصة بالشريعة الإسلامية وأهلها، أما العلوم العقلية فهي مشتركة بين الأمم إذ يمكن للإنسان ان يهتدي إليها بفكره[1].

وبناءًا على هذا فقد كانت طبيعة العلوم ومناهج التعليم في مصر والهند يغلب عليها الطابع الديني بوصف أن الدولتين إسلاميتان وهذا أمر طبيعي، إذ لما يزل المجتمع الهندي بحاجة إلى فهم مبادئ الإسلام ونشره بينهم، ومن الناحية السياسية فان السلطان بحاجة ماسة إلى أن يحظى بالشرعية الإسلامية والتأييد لحكمه، وبمرور الوقت ظهرت مصنفات دينية ولغوية عديدة درست في مساجد ومدارس مدن القاهرة ودلهي، ففي مجال علم الحديث درّست مصنفات الحسن بن محمد بن الحسين الصاغاني[2] ومنها (مشارق الأنوار) الذي ألفه للخليفة العباسي المستنصر بالله، و (الاضداد) و (العباب الزاخر واللباب الفاخر)[3].

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق، ج١، ص٣٦٤.

(٢) ولد في لاهور عاصمة باكستان الغربية الآن سنة ٥٥٧هـ/١١٢٣م ودرس فيها ورحل إلى غزنة ثم إلى بغداد حيث نال شهرة كبيرة فيها وتوفي هناك سنة ٦٥٠هـ/١٢٦٢م وكان من أعظم علماء عصره. ينظر : الندوي : تاريخ الصلات، ص١٧٩ ؛ الحسني : نزهة الخواطر ...، ج١، ص١١٠.

(٣) الذهبي : مخطوط تاريخ الإسلام، ج٣، ص٣٢١.

وفي مجال التفسير والفقه فقد ظهرت مصنفات للشيخ حميد الدين الدهلوي (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٤م) واحتوت على شروح كثيرة مثل (شرح الهداية) ومصنفات أخرى للسيد الشريف إبراهيم (٨٠٨هـ/١٤٠٤م) ومنها (حاشية الهداية) [١]. ومصنفات الشيخ علاء الدين علي بن احمد الشافعي ومنها (تبصير الرحمن وتيسير المنان) وهو في أربع مجلدات وفيه عناية خاصة بحسن الإنشاد وإيراد اللطائف وربط الآيات بعضها ببعض وقد تم طبع هذا التفسير في القاهرة[٢]. وفي مجال النحو سادت مصنفات الزمخشري مثل (الكافية والمفصل) في التدريس في مصر والهند. أما في مجال الأدب فكانت مقامات الحريري منهجًا شاملاً لها[٣]. فضلاً عن ظهور المعاجم اللغوية الضخمة في الهند لاسيما معجم إرشاد النحو لشهاب الدين الدولت آبادي[٤] ومعجم معارف العلوم العربية للقاضي إبراهيم الملتاني[٥].

أما في مجال العلوم العقلية فيبدو أن حضارة الهند كان لها السبق والتقدم فيها، ففي مجال الرياضيات لا يمكن إنكار فضل الهنود على العرب في مجال كتابة الأعداد، فقد كانت تكتب بالحروف في الدولة العربية الإسلامية حتى القرن الأول للهجرة / الثامن للميلاد وقد تلقاها العرب (أي الأرقام الهندية) ببهجة وسرور فطورت وانتشرت في الدولة العربية الإسلامية وضعفت أمامها جميع الأرقام الأخرى بما فيها الأرقام المصرية القديمة[٦]. وفي مجال علم الفلك وبالرغم من أنه علم عربي قديم نشأ في بلاد الرافدين وتطور في مصر إلا أنه

---

(١) الحسني : الثقافة الإسلامية في الهند، مطبوعات المجمع العلمي العربي، (دمشق – ١٩٥٨)، ص١٨٧.

(٢) الندوي : تاريخ الصلات، ص١٨٧ ؛ الحسني : الثقافة ...، ص١٨٧.

(٣) الندوي : تاريخ الصلات، ص١٨٩.

(٤) ولد في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي في دولت آباد في الدكن، وألف معجمه هذا في تركيب الجمل وهو أرفع منزلة من كافية ابن الحاجب في نظر العلماء الهنود. ينظر : زبيد أحمد : الآداب العربية في شبه القارة الهندية، ترجمة عبد المقصود محمد شلقامي، دار الحرية (بغداد – ١٩٧٨)، ص٢٠٥.

(٥) الحسني : الثقافة ...، ص١٣٢.

(٦) لمزيد من التفاصيل حول الأرقام الهندية ينظر : الندوي : تاريخ الصلات، ص٨٠-٨١.

لا يمكن إغفال دور الهنود في تعلم العرب بعض مصطلحات علم الفلك والتنجيم، فنجد الكثير من الكتب الهندية وصلت إلى العرب واعتمدوا عليها في دراستهم ومنهجهم وأهمها كتاب (السند هند) [١].

وكما تقدم علم الطب والعلوم الأخرى في مصر منذ أن كان المصريون القدماء يحنطون موتاهم ويشرّحون أجسادهم، فقد تقدم هذا العلم عند الهنود أيضًا ووصلت إلينا كتبهم في الطب والعلوم الأخرى وأخذت طريقها إلى الترجمة إلى اللغة العربية ويذكر أن أول من عمل في الطب من الهنود في العصر الإسلامي هو (زيا محمد)الذي ألف كتابًا في الطب اقتبسه من الطب العربي الإسلامي وسماه بـــ (مجموع زيا) وذلك في عهد السلطان محمد تغلقشاه[٢].

كما يمكننا أن نلمس تطور الفلسفة الهندية تطورًا طويلاً ومعقدًا عبر العصور، ومع أنها نادت بأفكار ومعتقدات أدت بعدد من المسلمين إلى التأمل بها فقد تميزت بالتفكير الروحي الذي يعد جانبًا مهمًا في الحياة الهندية، وتدرك الفلسفة الهندية الإنسان روحيًا في طبيعته وتهتم بمصيره الروحي كما تربطه بوجود روحي في جوهره. وهكذا كانت المسائل الدينية سبب عمق وقوة وغاية العقل والروح في الفلسفة الهندية وهي على الرغم من اعتمادها على المعرفة والعقل فإنها تعتمد أيضًا على الحدس كوسيلة للمعرفة[٣].

مراكز التعليم :-

ازداد النشاط العلمي واللغوي والديني في مصر في عصر المماليك نظرًا لكثرة المساجد والمدارس التي اختصت بتدريس الفقه والعلوم الإسلامية على المذاهب الأربعة، وقد امتدت هذه المساجد والمدارس في الكثرة والاتساع منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس حتى عهد السلطان الغوري. ولعل أول ما يبرز

---

(١) أي سدَّ هاند وهي كلمة هندية تعني المستقيم الذي لا يعوّج ولا يتغير وهو كتـــاب كبيـــر احتوى على معارف الفلك والتنجيم للهنود. كما سمي بدهر الدهور ومنه تفرعت الكتـــب الأخرى في علم الفلك كالمجسطي. ينظر: البيرونـــي : المصـــدر الســـابق، ص١١٨ ؛ النويري : المصدر السابق، ج١٤، ص٣٢٠؛ Ikram, OP. Cit., P., 15.

(٢) Ikram : OP. Cit., P., 115.

(٣) زبيد احمد : المرجع السابق، ص٥٥ ؛ الندوي : تاريخ الصلات، ص٩٠.

لدينا في هذا الجانب في مصر هو الجامع الأزهر[1] كأعظم جامعة عربية إسلامية في تلك المدة، إذ ارتفعت مكانته وزادت شهرته بفضل عناية سلاطين المماليك به، وقد أصبحت المناهج التعليمية المتبعة فيه رائدة ومتبعة في جميع مساجد ومدارس العالم الإسلامي لاسيما المساجد والمدارس الهندية. وكان من سمات هذه المناهج تدريس العلوم العقلية بجانب العلوم الدينية من تفسير وفقه ونحو وصرف وما إلى ذلك[2].

كما برز لدينا. أيضًا مسجد أخر اختص بتدريس العلوم الإسلامية وكان ذروة ما وصل إليه فن البناء المصري في عصر المماليك وهو مسجد السلطان الظاهر بيبرس والذي بناه بميدان الظاهر في القاهرة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م وجلب لذلك الرخام والأخشاب وغيرها من مواد البناء من سائر البلاد وزينه بزخارف الجص[3]. فضلاً عن المساجد الأخرى الكبيرة التي أنشأت في تلك المدة وفتحت أبوابها لطلاب العلم من العالم الإسلامي أجمع لاسيما جامع قلاوون الشهير وجامع السلطان الغوري والقبة الشهيرة في منطقة الغورية بالقاهرة[4].

أما المدرسة فهي شيء جديد نسبيًا لم يعهده المسلمون من قبل وذلك لأن المسجد كان يمثل المكان الطبيعي لتلقي العلوم بمختلف أنواعها في حين أن المدارس بنيت في مراحل متأخرة من مراحل الحضارة العربية الإسلامية. والمدرسة هي مكان لتدريس عدد معين من الطلاب على أيدي أساتذة مختصين ولهم مواد دراسية معينة ذات مستوى معين، والدراسة غالبًا ما تكون فيها ذات طابع ديني قائم على المذاهب الأربعة مع ما يلزمها من أدب ولغة وأصول

---

(١) تأسس جامع الأزهر في القاهرة سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م بناه الخليفة الفاطمي العزيز بالله وبنى جواره منازل للطلاب وجدد بناءه الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م. تجاوز عدد طلابه في سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م إلى سبعمائة طالب. ينظر : شلبي النعماني : العالم العربي والرحالة الهنود، مجلة ثقافة الهند، م٤٣، ع١، سنة ١٩٩٢، ص٢٧.

(٢) الندوي : تاريخ الصلات، ص٢٠٠.

(٣) حسن : المرجع السابق، ص٥٢.

(٤) عزام : المرجع السابق، ص٢٣.

وتوحيد[١]. وقد ألحقت هذه المدارس بالمكتبات الكبيرة التي حفظت الكثير من المصادر والمراجع.

وبناءًا على ذلك شهد عصر المماليك نشاطًا متزايدًا في بناء المدارس والمكتبات قام به السلاطين المماليك من أجل رفد الحركة التعليمية والثقافية في مصر، والواقع أن ازدهار الحركة الثقافية في بلد ما يرتبط بتشجيع الدولة لها ولاشك أن تقدم حضارة مصر يعود إلى جهود أبنائها وعلمائها وسلاطينها المماليك الذي حثوا على حب العلم ورعاية العلماء، فهذا السلطان الظاهر بيبرس كان يميل ميلاً زائدًا إلى التاريخ وكان يقول : "إن سماع التاريخ أعظم من التجارب"[٢] وكذلك السلطان الظاهر ططر الذي كان مجلسه لا يخلو من وجهاء الناس والصالحين وأهل العلم حتى أنفق جزءًا من ماله في سبيل تجديد وإنشاء عدد من المؤسسات الخيرية والأعمال الجليلة[٣] ويضرب لنا السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) مثالاً أخر على تقرب السلاطين من العلماء وخلق الأجواء الثقافية من أجل تنشيط الحركة الثقافية فكان يعقد المجالس العلمية والدينية يومين من كل أسبوع وتناقش في هذه المجالس بعض المسائل الفقهية المستعصية[٤]. وعلى أية حال فقد أنشأت في عصر المماليك مدارس عديدة احتضنت آلاف الطلاب من مختلف البلدان الإسلامية ولعل أبرزها : المدرسة المنصورية التي أسسها السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ورتب بها دروسًا للمذاهب الأربعة في الفقه والتفسير وعلم الحديث، وجلب إليها خيرة أساتذة الفقه في العالم الإسلامي كما أقام بها دروسًا في العلوم الطبية[٥] وعمل المنصور قلاوون بسيرة أسلافه من الفاطميين والأيوبيين الذين أنشأوا المكتبات الكبيرة وجلبوا إليها الكتب العظيمة بحيث كانت "من عجائب الدنيا لسعتها وندرة

---

(١) محمد ماهر حمادة : المكتبات في الإسلام، ط٣، مؤسسة الرسالة، (بيروت – ١٩٨١)، ص١٣٥.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ....، ج٧، ص١٨٢.

(٣) العيني : المصدر السابق، ص٢٤.

(٤) عزام : المرجع السابق، ص٤٨ ؛ الندوي : تاريخ الصلات، ص١٩٧.

(٥) المقريزي : الخطط...، ج٢، ص٣٨٠.

كتبها"[1] فاهتم بالكتب الدينية اهتمامًا خاصًا وأنشأ لذلك مكتبة كبيرة ألحقها بمدرسته المنصورية وزودها بالعديد من كتب التفسير والفقه واللغة والطب ودواوين الشعر، وسار على نهجه ولد السلطان الناصر محمد بن قلاوون فتقرب إلى العلماء بالمنح والعطايا وبناء المدارس الشهيرة[2]. ومن المدارس الأخرى مدرسة المحلي[3] ومدرسة السلطان قايتباي بالقرافة الشرقية والتي بنيت في سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م وتحتوي على العديد من المرافق لا سيما الغرف والملاكات الإدارية والتعليمية، والمدافن وغيرها.

أما عن أماكن التصوف والزهد فقد انتشرت هي الأخرى في مصر والهند على حد سواء، ففي مصر أقام المتصوفة لهم بيوتًا خاصة للعبادة والتهجد والذكر سميت بـ (الخانقاه) والتي كان يرأسها شيخ كبير جليل له من الإيمان والعلم والصفاء ما يؤهله لذلك، ولم تكن مشيخة الخانقاه وراثية بل تعتمد على من له طرف جيد من الحديث والأخبار والزهد، ومن أبرز الخوانق التي ظهرت في مصر خانقاه السلطان الظاهر بيبرس وخانقاه الظاهرية التي أنشأها السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م وتقع بين المدرسة الناصرية ودار الحديث الكاملية[4] وكذلك خانقاه الخروبية بساحل الجيزة والتي يرجع تأسيسها إلى أبي بكر الخروبي كبير تجار الكارم بمصر وكانت قبل ذلك دارًا كبيرة وجميلة وتحولت بأمر السلطان المؤيد شيخ بن برقوق إلى خانقاه للعبادة سنة ٨٢٢هـ/١٤٢٢م[5].

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق، ج١، ص٢٠٠.

(٢) الندوي : تاريخ الصلات، ص١٩٩ ؛ حسن : المرجع السابق، ص٦٦.

(٣) أنشأها رئيس التجار برهان الدين المحلي وأنفق عليها خمسون ألف دينار وقد قام التاجر بدور نصير الآداب والمحسن بصدقته ومساعدته للفقراء وساهم بأمواله في تجميل المباني الدينية والمراكز الثقافية ذات المنفعة. ينظر : المقريزي : الخطط...، ج٢، ص٣٦٩ ؛ لومبارد : المرجع السابق، ص١٣٤.

(٤) المقريزي : الخطط...، ج٢، ص٤١٨.

(٥) الصيرفي : المصدر السابق، ج٣، ص١٥.

كما وجدت أيضًا (الرُبط) [1] وهي بيوت للصوفية يسكنها أهل المسك والعبادة وكانت كثيرة في أيام المماليك. ومن أهم الرباطات : الرباط الناصري ورباط التاجر ابن سويد التكريتي[2] وغيرها كما وخصصت أماكن ورباطات أخرى لإقامة النساء المهجورات والمطلقات. ولعل الدور والقاعات التي انتشرت في عصر المماليك كانت تمارس الدور نفسه الذي تؤديه الخانقاهات والرُبط، فهذه القاعات كانت واسعة وبعضها قريب من المساجد ويجتمع فيها الرجال الفضلاء والزهاد بدليل أن مؤسسيها كانوا من أعيان الناس وفضلائهم. ومن أبرز هذه القاعات : القاعة الطنبذية[3] وقاعة التاجر محمد الماحوري[4] ودار القليجي[5].

أما مراكز التعليم في الهند فلم تختلف كثيرًا عنها في البلاد الإسلامية الأخرى، لذلك نلاحظ التقاء مصر والهند في هذه الناحية فأنشأت مئات المساجد والمدارس الدينية في دلهي والأقاليم الإسلامية الهندية على غرار المدارس الإسلامية في مصر[6]. وقد اهتم الفاتحون المسلمون الأوائل ببناء المساجد أولاً كمراكز للعبادة والتعليم في آن واحد بعد فتحهم واستقرارهم في البلاد مباشرة[7] ومثلما كان مماليك مصر قد نشأوا في دولتهم المساجد العظيمة كذلك فان سلاطين الهند من المماليك كانوا على هذه الطريقة، فبنوا مساجد جميلة في قمة

---

(١) جمع رباط وهي من الخيل والمرابطة أي ملازمة ثغر العدو وأصله يربط كل واحد من الفريقين خيله ثم صار لزوم الثغر رباطًا. ينظر : المقريزي : الخطط...، ج٢، ص٤٢٧.

(٢) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٣، ص٢٦٢.

(٣) قاعة كبيرة أنشأها التاجر الكارمي نور الدين الطنبذي، وهي مطلة على النيل. ينظر : الصيرفي : المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٧.

(٤) أنشأها قرب الجامع الأزهر وأنفق عليها أموالاً كثيرة. ينظر : السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك، المطبعة الأميرية، (القاهرة – ١٨٩٦)، ص١٩٨.

(٥) تولاها القاضي شمس الدين محمد القليجي الحنفي. ينظر : المقريزي : الخطط...، ج٢، ص٧٥-٧٦.

(٦) الندوي : تاريخ الصلات، ص٢٠٠.

(٧) البلاذري : المصدر السابق، ص٥٣٥.

الروعة ومن بينها مسجد (قوة الإسلام) في دلهي الذي بناه السلطان قطب الدين أيبك وأضاف إليه منارًا عظيمًا هو منار قطب وبنى جامعًا أخر في مدينة أجمير Ajmir [١].

وكان بناء المدارس في الهند ظاهرة حضارية متطورة عن المسجد فقد عرفت الهند هذا النوع من مراكز التعليم منذ القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد وظهور المدارس في الهند يعود إلى أن المساجد لم تعد ملائمة للطلبة من حيث أعدادهم الكبيرة وعدم وجود جو دراسي مناسب لهم بسبب خصوصية المسجد للصلاة وخشية عدد من السلاطين والعلماء من أن تسود مجموعة من المذاهب على المذاهب الأربعة المعروفة[٢].

لقد عدت مرحلة ظهور سلطنة دلهي سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٦م ظاهرة مهمة وغير اعتيادية انعكست نتائجها الإيجابية على مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في الهند لأسباب منها أن الهند بدأت تحكم إسلاميًا من داخلها من خلال سلطنة إسلامية بدأت بالتوسع ونشر الإسلام في مناطق عديدة من بلاد الهند لم يكن للإسلام سيطرة عليها من قبل[٣].

وقد وجدت العلوم والمعارف والآداب العربية الإسلامية مكانًا خصبًا لها في الهند، وليس أدل على ذلك اهتمام سلاطين الهند بإنشاء المدارس وتنظيم التدريس فيها وتعيين المحاضرين لها وتخصيص المرتبات لها، فظهرت المدرسة الفيروزية بمدينة أوج سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م[٤]. وكان من بين من تولى التدريس فيها الشيخ عثمان بن محمد بن عثمان الجوزجاني[٥]. كما أنشأ سلاطين المماليك الهنود دائرة حكومية مهمتها الإشراف على رعاية المدارس وتقديم

---

(١) السامر : المرجع السابق، ص٩٤.

(٢) الطحطوح : المرجع السابق، ص١٢٩.

(٣) المرجع نفسه، ص١٢٦.

(٤) ويسميها ابن بطوطة أوجة Oudh ، وهي مدينة كبيرة على نهر السند لها أسواق حسنة وعمارة جيدة وأهلها مسلون وهي قريبة من الملتان. ينظر : ابن بطوطة : المصدر السابق، ص٤٠٢.

(٥) الحسني : الهند ...، ص٤٢٦ ؛ الطحطوح : المرجع السابق، ص١٣٣.

العون لها وهي تستمد سلطتها من السلطان مباشرة كدليل على الاهتمام بهذا الجانب[١]. وفي عهد الخلجين كان مؤسس هذه الأسرة جلال الدين الخلجي مثالاً للرجال المتأدبين لذلك يمكن أن نضعه في حقبة العلماء والمثقفين الذين ظهروا في عهده لكن خليفته السلطان علاء الدين الخلجي (٦٩٦-٧١٦هـ/١٢٩٦-١٣١٧م) كان مهتمًا بالعلم والعلماء وبناء المساجد والمدارس التعليمية وإقامة حلقات العلم على الرغم من أميّته[٢]. ثم شهد العصر التغلقي ازدهارًا في الحركة التعليمية وبناء المدارس، فبرز في هذا الميدان السلطان محمد تغلق سلطانًا عالمًا مشاركًا في الحكمة ومحبًا للعلم، فتواضع للعلماء وأنفق عليهم الكثير من أمواله كما أكرم العلماء الوافدين على بلاطه وحظي بعضهم بالولايات والمناصب الإدارية حتى أنه سمى الغرباء في دياره بـ (الأعزة). ومن بين الذين وفدوا إليه أثناء مدة حكمه الرحالة ابن بطوطة سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٧م إذ حظي بالمكانة الرفيعة هناك وتولى منصب القضاء في دلهي[٣]. وقد تحدث عمّا شاهده في بلاط هذا السلطان من التزام بالدين واهتمام به فقد مثلت مدة زيارة ابن بطوطة لدلهي قمة ما وصلت إليه تلك السلطنة من ناحية الاهتمام بالعلوم الإسلامية وإقامة مراكز التعليم، فذكر ابن بطوطة عددًا من المدارس المهمة في الهند وأبرزها تلك المدرسة التي أسسها السلطان محمد تغلقشاه وهي مدرسة سيوستان Sustan [٤]. إذ انتشرت فيها الثقافة العربية الإسلامية وتنوعت فيها مناهج التعليم حتى أن ابن بطوطة سكنها وباشر التعليم فيها. كما تحدث عن مدينة هنور Hanur [٥] أن أهلها شافعيو المذهب ولهم دين وصلاح وجهاد، وذكر ثقافة نساء المدينة وقال ان منهن من تحفظ القرآن الكريم، وقال أنه رأى بالمدينة

---

(١) الطحطوح : المرجع السابق، ص١٣٤.

(٢) احمد : المرجع السابق، ص٣٠.

(٣) العمري : المصدر السابق، ص٤٩ ؛ الحسني : الهند...، ص١٩٨.

(٤) هي كورة من كور السند وأول الهند ولها قرى كثيرة. ينظر : ابن بطوطة : المصدر السابق، ص٣٩٩.

(٥) مدينة تقع على خور كبير تدخله السفن الكبيرة وهي على مسافة نصف ميل من البحر. ينظر : ابن بطوطة : المصدر نفسه، ص٥٥٤.

أكثر من ثلاث عشرة مكتبة مرتبطة بدور تعليم البنات وثلاث وعشرون مكتبة للأولاد، وقال عن مدينة هيلي Haily [١] أنها عظيمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع الذي يحتوي على خزانة عظيمة تحت نظر الخطيب، وبالمسجد نفسه جماعة من الطلبة يتعلمون الدروس الدينية ولهم مرتبات من مال المسجد ولهم أيضًا مطبخ للطعام للفقراء[٢].

وقد كان عهد السلطان فيروز تغلقشاه زاخرًا بالحركة العلمية والأدبية إذ نقل العاصمة إلى فيروز آباد وجعل منها منارًا ومنهلاً للعلم والأدب، فبنى بها ثلاثون مدرسة كبيرة لتدريس كافة العلوم العربية الإسلامية، كما استغل الأراضي الواسعة في إنشاء المرافق الحيوية النافعة كالجسور والمساجد والبيمارستانات التي أطلق عليها اسم (دور الشفا)، ونتيجة اهتمام هذا السلطان بالمنشآت والمباني الخيرية فقد بالغ المؤرخون في ذكرها وتعديدها[٣]. ولعل أبرز مآثره في المجال الثقافي هو إنشاؤه المدرسة الفيروزية بدلهي وجعل بداخلها حديقة تقع وسط بيوت الناس فتوافد إليها العلماء من مختلف الأماكن الإسلامية[٤]، كما وقدم جميع المستلزمات لخدمة الحركة التعليمية وهيّأ الأجواء المناسبة للطلبة بصورة تظهر الروح العربية الإسلامية فيها فكان الطلاب يرتدون أثناء ممارسة الدرس الجبة السورية والعمامة المصرية وصدى أصواتهم عالية عند الدرس[٥]. كما كانت الدولة تتحمل نفقات المدرسة التي تتضمن تقديم وجبات غذائية للطلبة وتقديم رواتب وعلاوات للمدرسين بحيث تتناسب وقدراتهم العلمية وكفاءتهم، ومبالغ تشجيعية أخرى للطلبة فضلاً عن سكنهم وغذاؤهم

---

(١) هي مدينة كبيرة حسنة العمارة وهي نهاية مراكب الصين وأهلها مسلمون. ينظر: المصدر نفسه، ص٥٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٦١.

(٣) أرسلت هذه المعلومة مؤسسة شومان بريديًا، (عمان – ١٩٩٩).

(٤) Ikram : OP. Cit., P., 114.

(٥) R.C. Jauhri : Learning and Literature During the region of Firoz Shah Tughluq, I.C., Vol., XLI (Deccan – 1967), P., 143.

المجاني[١] ومنح الطلاب الفقراء والمعوزين أموالاً لكي يتابعوا تعليمهم دون أن يعانوا ضيقًا ماليًا[٢]. وفي عهد الأسرة اللودية نقل السلطان اسكندر خان اللودي سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م العاصمة إلى أكرا وبنى فيها مساجد ومدارس فاخرة لكي تنافس دلهي وغيرها من المدن الإسلامية الأخرى، فتوجه إليها الكثير من العلماء والأدباء[٣].

وعلى الرغم من التدهور السياسي الذي أصاب سلطنة دلهي بعد العصر التغلقي فان ظاهرة الانقسامات السياسية عن مركز السلطة لم تكن تؤثر سلبًا على مسيرة الحركة الثقافية بل على العكس فقد انتشرت المساجد والمدارس بشكل واسع في مختلف الأقاليم الهندية[٤].

ففي سلطنة الدكن البهمنية ٧٤٨-٩٣٤هـ/١٣٤٧-١٥٢٧م كان السلطان فيروز شاه البهمني يقدم الرعاية للعلماء والمثقفين وكان يقوم بالتدريس في المساجد والمدارس الدينية في سلطنة الدكن لثلاثة أيام في الأسبوع[٥]. أما في سلطنة كشمير فقد أنشأ سلاطينها العديد من المدارس التعليمية والدينية وخصصوا لروادها رواتب ومنح مالية عالية وفصلوها عن مدارس الهنود بقصد النهوض بأبناء البلاد دون النظر إلى الاختلافات الدينية بينهم[٦]. كما وجدت مدارس خاصة لتعليم الأطفال والنساء[٧].

أما أماكن التصوف في الهند فقد انتشرت هي الأخرى في مختلف المدن والأقاليم الهندية فتأسست في رسول آباد إحدى ضواحي مدينة احمد آباد خانقاه للسيد محمد الياس شاهي علم (ت ٨٨٠هـ/١٤٧٥م) وتلقى فيها الطلاب مختلف

---

(١) Ibid : P., 141.

(٢) يوسف حسين خان : نظام التعليم في الهند في العصور الوسطى، ثقافة الهند، أبريل، ١٩٦١، ص٧٠.

(٣) احمد : المرجع السابق، ص٣٤.

(٤) الطحطوح : المرجع السابق، ص١٣٧.

(٥) النمر : المرجع السابق، ص١٧١.

(٦) الحسني : الهند ...، ص٤٢٧.

(٧) حسين خان : المقال السابق، ص٧٠.

ضروب العلم والفقه وأصول التصوف[١]. كما شيدت الكثير من الخانقاهات التي اعتكف فيها طلاب المعرفة لينهلوا من مكتباتها ما شاء لهم أن ينهلوا وأن يتلقوا من شيوخها وأساتذتها ما يقدمونه إليهم من فنون المعرفة والعلوم الإسلامية[٢] وقد أسهم الهنود المسلون في إغناء مفهوم علم التصوف والأخلاق[٣].

يتبين أن الأضواء الملقاة على المساجد والمدارس والخانقاهات ومراكز التعليم الأخرى، والنظم المطبقة فيها، من الأوقاف والنفقات تعطينا صورة واضحة في كونها سارت على نفس منوال مراكز التعليم في مصر والبلاد الإسلامية فالرحلات والزيارات العربية الإسلامية إلى تلك المناطق كثيرة جدًا فبذلك ظهرت الثقافة العربية الإسلامية فيها[٤].

*** ***

الاهتمام بالأماكن الإسلامية المقدسة :

التقت مصر والهند بظاهرة ثقافية ودينية عبّرت عن مدى تأثير الإسلام في نفوس الهنود وسلاطينهم المسلمين، ألا وهي اهتمامهم بالأضرحة الدينية، والإنفاق على الأماكن المقدسة للمسلمين لاسيما في الحرمين الشريفين، قبر النبي ﷺ والكعبة المشرفة والمسجد الحرام في مكة والمدينة، والمسجد الأقصى في القدس، مع الأخذ بعين الاعتبار أنها أماكن تابعة لسلطة المماليك. فتدلنا عدد من المصادر التاريخية على أن النفقات والأموال السلطانية كانت مستمرة وتصل في هذه المدة من سلاطين المماليك ومن سلاطين الهند الإسلامية وأقاليمها على حد سواء وكانت تصرف من أجل ترميم المسجد الحرام واعماره وباقي المقدسات الإسلامية. ففي سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م أرسل السلطان الظاهر بيبرس إلى شريف مكة يستحثه على احترام أوقاف الحرمين وألا يمنع أحدًا من الدخول من أجل

---

(١) السامر : المرجع السابق، ص٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص٨٣.

(٣) الطحطوح : المرجع السابق، ص٨٢ ؛ وعن المؤثرات الصوفية في الهند ينظر :
Maqbul Ahmed : OP. Cit., P., 24.

(٤) الندوي : تاريخ الصلات، ص١٩٤.

العبادة فيه، وجعل الحج أمرًا حرًا ومسهلاً[1]. وعندما خرج السلطان الأشرف شعبان إلى الحج سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م حمل معه هدايا قيمة وجليلة لنوابه في الحرف الشريف إكرامًا لهم ولاهتمامهم البالغ في الحرم الطاهر[2].

وقد أرسل السلطان غياث الدين أعظم شاه صاحب بنغالة (ت ٨١٤هـ/١٤١١م) صدقات متواصلة إلى أهل الحرمين وأقام مدرسة كبيرة في مكة لتدريس الفقه الإسلامي والعلوم الإسلامية على المذاهب الأربعة وصرف عليها مبالغ كبيرة قدرت باثنتي عشرة ألف مثقال ذهب مصري، وأقام مدرسة أخرى على غرارها في المدينة المنورة وعمل من بعده السلطان محمد بن فندو (ت ٨٣٧هـ/١٤٣٣م) على إنشاء مدرسة أخرى للفقه الإسلامي في مكة[3].

وكان السلطان شهاب الدين أبو المغازي (ت ٨٣٨هـ/١٤٣٤م) صاحب كلبركة من أجّل ملوك الهند دينًا وخيرًا فأقام رباطًا مهمًا في مكة أنفق عليه أموالاً كثيرة خلال مدة حكمه البالغة أربع عشرة سنة وأرسل السلطان احمد الأول (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) صاحب كوجرات سرادقًا جميلاً ليهيئ للحجاج الذين يطوفون حول الكعبة، كما أهدى السلطان الكوجراتي مظفر الحليم (ت ٩٣٢هـ/١٥٢٦م) مصحفين إلى الحرمين الشريفين بعد أن خطهما بيده، كما أنشأ رباطًا في مكة وأجزل العطاء لأهل الحرمين[4].

*** ***

---

(١) المقريزي : الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والسلاطين والملوك، تحقيق جمال الدين الشيّال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة – ١٩٤٠)، ص٨٥-٨٦.

(٢) المقريزي : المصدر نفسه، ص١١٩.

(٣) ابن حجر : أنباء...، ج٨، ص٣٢٦.

(٤) النمر : المرجع السابق، ص١٥٧،١٥٩ ؛ ضياء الدين الديسائي : الهند والشرق الأدنى في غضون ق١٤،١٣م، مجلة ثقافة الهند، م٤١، ع٢، سنة ١٩٩٠، ص١٩٤.

المبحث الثاني

حركة العلماء وطلاب العلم

كان من مظاهر الاتصال الثقافي بين مصر والهند في العصر المملوكي وجود الكثير من العلماء المسلمين البارزين من بلاد مختلفة دخلوا الديار المصرية وشبه القارة الهندية لأسباب منها سقوط الخلافة في بغداد والفوضى السياسة التي أحدثها الغزو المغولي وغيرهما وقد أتحفتنا عدد من المصادر التاريخية بأسماء شخصيات علمية عديدة قصدت البلدين لمواصلة الحركة العلمية والأدبية فيهما مما يدل من دون شك على أهمية مكانة البلدين في نفوس المسلمين. وقد باتت الشخصيات العلمية والدينية تتبادل الزيارات والرحلات وحظوا باستقبال حار من سلاطين المماليك وسلاطين الهند الإسلامية[١]. ومما يدل على ذلك ما وصفه الرحالة ابن بطوطة في بلاط السلطان محمد تغلق من كرم الضيافة والمنازل الرفيعة التي أنزله إياها حتى بالغ في إظهار مدحه له[٢].

وقد استقر الكثير من العلماء العرب المسلمين في الهند في حين فضل عدد أخر منهم العودة إلى بلادهم بعد استقرار الأوضاع السياسية فيها وجمع الثروات الكافية لهم، أما عن الهنود الذين سافروا خارج ديارهم فان سفرهم كان في سبيل الاستزادة في العلوم الإسلامية وتحقيق المهارة فيها، وأغلبية هؤلاء الهنود رجعوا إلى ديارهم بعدما أكملوا دراستهم، والقلية منهم استقروا في أماكن الهجرة لاسيما مصر[٣].

وهذه معلومات وتراجم مختصرة تلقي الضوء على طبيعة حركة العلماء وتنقلاتهم بين مصر والهند في العصر المملوكي في مجال الثقافة وتوضح أوجه أخرى من الصلات الثقافية والاجتماعية والدينية بين البلدين المسلمين.

---

(١) الديسائي : الهند والشرق الأدني...، ص١٢٨.

(٢) Maqbul Ahmed : OP. Cit., P., 150.

(٣) الديسائي : الهند والشرق الأدني...، ص١٢٨

أبرز العلماء الذين أسهموا في الصلات الثقافية :-

آ – العلماء المهاجرون من مصر إلى الهند :-

وجد العلماء المصريون في الهند مكاناً ملائمًا لممارسة نشاطهم العلمي والأدبي للتدريس في مساجد الهند ومدارسها، ومن بين الذين قدموا الهند في أواخر القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد : محمد بن تميم الاسكندراني الذي عاش مدة طويلة في ساحل مليبار وعمل لدى أميرها ناسخاً وكاتبًا، وألف مقامات طويلة وجيدة سمّاها (تواضع المقامات)، توفي سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م[١]. كما وصل الهند الشيخ بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني المالكي النحوي، ولد بالاسكندرية سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م وتلقى تعاليمه فيها[٢] وعني بالأدب والفقه والنحو واللغة وتصدر التدريس في الجامع الأزهر وعيّن قاضي القضاة المالكية في مصر أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون وفي سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م سافر بحرًا إلى الهند ووصل كوجرات وأغدق عليه سلطانها احمد شاه العطايا والهدايا وأخذ عنه الهنود الكثير من علومه وعظّموه، له مصنفات عديدة وشروح مثل (شرح التسهيل لابن مالك) و (تحفة الغريب في شرح مغنى اللبيب)، وأهدى مصنفاته هذه إلى السلطان احمد شاه، ثم رحل إلى الدكن وتوفي فيها سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م[٣].

وفي سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م سافر إلى الهند الشيخ زكي الدين الملطي ونشر خلال مدة إقامته فيها أفكاره وزهده وعلمه في مجال التصوف والأخلاق وفي سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م عاد إلى الديار المصرية فتلقاه الناس بالأفراح والاحتفالات وخلع عليه السلطان صالح بن قلاوون (٧٥٢-٧٥٥هـ/١٣٥١-١٣٥٤م) للخلع وأعاده إلى وظيفته السابقة في مشيخة الخانقاه الناصرية لسرياقوس[٤]. ومن كبار العلماء المصريين الذين جذبتهم سلطنة كوجرات،

---

(١) ابن حجر : الدّرر ...، ج٥، ص١٥٠-١٥١ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهـرة ...، ج١٥، ص١٢٨.

(٢) السخاوي : الضوء ...، ج٧، ص١٨٤ ؛ الحنبلي : شذرات...، ج٧، ص١٨١.

(٣) النمر : المرجع السابق، ص١٥٣ ؛ Maqbul Ahmed : OP. Cit., P., 40.

(٤) المقريزي : السلوك ...، ج٢، ق٣، ص٨٨٧.

الشيخ جلال الدين بن محمد المصري، ولد بمصر سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م وتلقى تعليمه فيها ثم سافر إلى كوجرات وحظي بمكانة كبيرة عند سلطانها، توفي سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٢م ولقبه بملك المحدثين[١]. ووصل كوجرات الشيخ محمد بن محمد بن سويد المصري الذي تلقى ترحيبًا كبيرًا من لدن سلطانها. ومن الذين توطنوا احمد آباد الشيخ أبي القاسم بن احمد بن فهد الذي أحضر معه كتاب فتح الباري في شرح صحيح البخاري وأهداه إلى السلطان احمد شاه[٢].

وفي القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد حدثت اضطرابات سياسية في بلاد الهند إثر تعرض الهند للغزو التيموري وما أعقبه من تقسيم للبلاد إلا أن ذلك لم يؤثر كثيرًا في حركة العلماء والتبادل الثقافي مع مصر فقد وصل إلى الهند العديد من العلماء المصريين ومنهم الشيخ صلاح الدين الأقفهسي المصري المحدث الحافظ، ولد سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م واشتغل بالفقه والفرائض ولازم شيوخ مصر وعلمائها ثم سافر إلى كمباية في بلاد الهند وتوفي سنة ٨٢١هـ/١٤٢٠م[٣] ثم الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم الصوفي أحد أهل النسك والعبادة اتصل بالسلطان الظاهر برقوق وزار أقطارًا عديدة من ضمنها الهند، توفي سنة ٨٣١هـ/١٤٣٠م[٤]. وسكن بلاد الهند الشيخ علاء الدين البخاري الحنفي الذي كان من أهل الزهد والورع والصلاح والتعفف عن التردد إلى أحد من الأكابر على الرغم مما اشتهر به من علوم شرعية وعقلية من تفسير وفقه ولغة وبيان، وكان قد جمع ثروة كبيرة خلال إقامته بالهند، توفي سنة ٨٤١هـ/١٤٤٠م[٥]. وبفضل هؤلاء العلماء والكثيرين غيرهم من الذين حملوا علومهم ومعارفهم وكتبهم القيمة نمت المعرفة والعلوم وتطورت في الهند وانتشرت مئات المدارس، فأصبحت دلهي تضم أكبر جزء من المخطوطات

---

(١) النمر : المرجع السابق، ص١٥٥.

(٢) الديسائي : الهند...، ص١٣٠.

(٣) الحنبلي : شذرات...، ج٧، ص١٥٠ ؛ الطحطوح : المرجع السابق، ص٧٨.

(٤) الصيرفي : المصدر السابق، ج٣، ص١٣٠ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ...، ج١٥، ص١٥٤.

(٥) الصيرفي : المصدر نفسه، ج٣، ص٤٢٨.

العربية الإسلامية النادرة والمصادر الإسلامية التي لا تزال محفوظة في مكتباتها الواسعة الخاصة والعامة(١).

ب- العلماء المهاجرون من الهند إلى مصر :-

أما فيما يتعلق بالهنود المسلمين فهناك عدد غير قليل منهم جاءوا إلى مصر لأغراض اكتساب العلوم الإنسانية والدينية والعقلية فاشتغل أغلبهم بالتدريس وتحقيق المهارة فيه، ومن أشهرهم : رتن الهندي الذي عاش بمصر في القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد ثم ابنه محمد الذي نال شهرة كبيرة في مجال العلوم. ومنهم أيضًا صفي الدين الهندي، ولد سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م ودرس الفقه وباقي العلوم الدينية وسافر إلى الحج ثم دخل اليمن ومنها إلى الديار المصرية سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م فأقام بها أربع سنين وذلك في فترة حكم السلطان الظاهر بيبرس فدرس أصول الفقه والتصوف وعلم الكلام بالمدرسة الظاهرية حتى صار شيخ الشيوخ فيها. ونظرًا لكثرة تنقلاته وعلومه فقد قال عنه الشيخ ابن تيمية : "أنت كالطائر تطير دائمًا من فن إلى فن" أي من علم إلى علم، توفي سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م ودفن في مقابر الصوفية في القاهرة(٢). واشتهر أيضًا في علم الفقه السراج الهندي عمر بن اسحق بن احمد الغزنوي، ولد سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م وتفقه على يد كبار الفقهاء الهنود أمثال وجيه الدين الدهلوي والسراج الثقفي(٣). سافر إلى مصر وحظي بمكانة رفيعة عند السلطان الأشرف شعبان فعينه قاضي القضاة الحنفية وبقى في هذا المنصب حتى وفاته سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م، وله شروحات ومصنفات عديدة منها: (الشامل في الفقه) و (شرح الزيادات) ودرس على يده الكثير من المصريين أمثال الشيخ محمد الحلبي المصري، وعلي بن الأمير حسام الدين لاجين(٤).

---

(١) الندوي : تاريخ الصلات، ص١٧٨.

(٢) المقريزي : السلوك ...، ج٢، ق١، ص١٥٨ ؛ ابن كثير : المصدر السابق، ج١٤، ص٧٤.

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر القاهرة، دار أحياء الكتب، (القاهرة – ١٩٦٨)، ج١، ص٤٧١.

(٤) ابن الفرات : المصدر السابق، ج٢، ص٤٧٦ ؛ الحسني : نزهة الخواطر ...، ج١، ص٩٦.

كما برز من العلماء الهنود القاضي جلال الدين محمد المعروف بجار الله وكان على معرفة بمختلف العلوم كالفقه والطب، وصل القاهرة سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م وتولى عدة مناصب فيها ودرّس بجامع ابن طولون وخلف الشيخ سراج الدين الهندي في مشيخة القضاة الحنفية سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م وبقى بهذا المنصب حتى وفاته سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م(١). وكان نزيل القاهرة الدائم الشيخ عبد الله بن شيرين الجمال الهندي قد حدّث وخطب في المدرسة البرقوقية إلى أن توفي سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م(٢). وجاء إلى القاهرة أيضًا الشيخ جلال الدين بن احمد البخاري الآجي، ولد سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وسافر إلى مصر وأدرك مشايخها الكبار وأخذ عنهم حتى اكتسب حكمًا وعلمًا وعندما عاد إلى الهند ولاه السلطان محمد تغلق مشيخة الإسلام فيها(٣).

ومن جانب أخر ظهر عدد من أولئك العلماء الذين جاءوا إلى مصر أو الهند للتجارة فضلاً عن ممارستهم نشاطهم الثقافي والفكري، وكما أشرنا سابقًا إلى دور التجار في نشر الإسلام ومنهم : التاجر محمد بن محمد الصاغاني الهندي الحنفي الذي سافر إلى القاهرة وأجيز بالإفتاء فيها واستمر يتاجر ويفتي حتى وفاته سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م(٤) وكذلك التاجر محمود بن احمد الكيلاني الذي سافر إلى القاهرة ولقي الشيخ ابن حجر العسقلاني وأخذ عنه وبعد ذلك عاد إلى الهند وبقي مدة طويلة يتاجر ويلقي محاضرات في الفقه والنحو حتى وفاته سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م(٥).

*** ***

---

(١) الديسائي : الهند ....، ص١٣٢.

(٢) السخاوي : الضوء...، ج٥، ص٢١.

(٣) الحسني : نزهة الخواطر...، ج١، ص٢٨-٢٩.

(٤) تقي الدين محمد بن احمد الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد (القاهرة – ١٩٦٢)، ج٢، ص٣٣٢.

(٥) السخاوي : الضوء...، ج١٠، ص١٤٤.

المبحث الثالث
أثر المصريين الثقافي والديني

لقد كان للمصريين أثر كبير في المجال الثقافي والديني في ثقافة الهنود وعقائدهم وربما كان ذلك بسبب دخول الإسلام إلى المصر منذ فترة مبكرة، ولدور مصر ومكانتها آنذاك. وقد شمل ذلك التأثير جوانب عديدة منها :

أولاً : في مجال اللغة العربية :-

إذ كانت اللغة الهندية المسماة (ببراكارت)[١] تواصل نشاطها وتؤدي دورًا طليعيًا في أوساط العامة من الهنود وفي التخاطب والتعامل مع الرعايا، وسارت إلى جانبها أيضًا اللغة الفارسية كلغة للشعر والأدب[٢]. وتغير الحال عند دخول الإسلام الهند إذ توجب على الهنود تعلم اللغة العربية وقواعدها على الأقل ليتمكنوا من قراءة عدد من آيات القرآن الكريم عند أداء الصلاة، أو من أجل تفهم تعاليم الدين الإسلامي، أو حتى من أجل استعمال أنواع الخطوط العربية في المصاحف، وتزيين جدران المساجد والمحاريب ... الخ، حتى تطورت وأصبحت بوقت سريع اللغة الثانية من الناحية الرسمية فأوجد لها موقعها العديد من المجالات الأخرى لتعبر عن نفسها في الهند لاسيما في خطب الجمع والمدارس[٣]. وقد أسهم السلاطين الهنود المسلمون والعلماء والمثقفون في انتشار هذه اللغة وترويجها هناك فيروى أن السلطان جلال الدين الخلجي كان أول سلاطين الهند الذين اهتموا بالشعر والأدب واللغة العربية في بلاطه الكبير[٤]، وذلك على الرغم من أنه جاء من أسرة تركية. كما أسهم العلماء

---

(١) وتسمى برج بهاشا، وقد أطلق عليها الأوردية في العصر المغولي فيما بعد، ينظر : الندوي : تاريخ الصلات، ص٢٠٢.

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

(٣) الطحطوح : المرجع السابق، ص٩٢.

(٤) Aziz Ahmed : Studies in Islamic Culture in Indian Environment, (Oxford – 1964), P., 218-219.

المصريون الذين جاءوا إلى الهند في نشر اللغة العربية في مختلف الأقاليم الهندية حيث كان بينهم علماء في البلاغة والنحو والصرف، حملوا معهم بعضًا من مصنفاتهم الضخمة لتكون مناهج أساسية في التدريس في مساجد الهند ومدارسها، ومنها : (الكشاف للزمخشري) و (تحفة الغريب للدماميني) المار ذكرهما.

ومن جانب أخر لم يغفل المسلمون الهنود علوم اللغة العربية وأهميتها ففي الوقت الذي كانت فيه المصنفات العربية في اللغة خاصة تبرز وتؤثر في اللغات المحلية في الهند في عصر السلطنة – كان الهنود يقومون بمحاولات جدية في دارسة علم النحو والصرف والبلاغة[1]. وبمرور الوقت أخذت اللغة العربية مكانًا كبيرًا في نفوس الأدباء الهنود حتى وجدت إسهامات هندية في نواحي متعددة برز فيها عدد من الهنود الذين عبرّوا عن إتقانهم اللغة العربية ومحبتهم لها، وكمثال على ذلك قصيدة الشاعر الهندي عبد المقتدر بن ركن الدين الدهلوي (ت ٧٩١هـ/١٣٨٨م) والتي جاء فيها :-

يا سائق الضغن في الأسحار	سلم على دار سلمى وأبك ثم سلِ
يا طالب الجاه في الدنيا يكون	على شفا حفرة النيران والشعلِ
يا طالب العزّ في العقبة بلا عمل	هل تنفعك فيها كثرة الأجلِ
يا من تطاول في البنيان معتمدًا	على القصور وخفض العيش
لأنت في غفلة والموت في أثر	ويعد وفي يده مستحكم الطولِ
اقنع من العيش بالأدنى وكن ملكًا	إن القناعة كنزٌ منك لم يزلِ[2].

(١) وكان أول من اشتغل بعلوم اللغة العربية من الهنود هو رضي الدين الحسن الصاغاني المار ذكره وله مصنفات في اللغة مثل (مختصر العروض)، توفي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م. ينظر : الطحطوح : المرجع السابق، ص٩٦ ؛ زبيد احمد : المرجع السابق، ص٢١٤.

(٢) الحسني : الثقافة ...، ص٤٤.

كما استفاد الهنود من المصنفات والمعاجم اللغوية التي أدخلها المصريون معهم مما دفع الهنود إلى التعمق في دراستها وفهمها وإعادة تبويبها وفهرستها بصورة جديدة فأضافوا إليها شيئًا من ثقافتهم وعلمهم[١].

*** ***

ثانيًا : في مجال التصوف[٢]:-

من الجوانب التي أثر بها المصريون على الهنود ما يتعلق بالتصوف إذ كان أوضح نشاط ديني في عصر المماليك فكثر الزهّاد والتقّاة والمنقطعين وأقاموا لهم طرائق دينية متعددة مثل الطريقة الأحمدية والطريقة الرفاعية وغيرها، واتخذت كل طريقة شعارًا خاصًا لها كما اتخذت مكانًا خاصًا بها[٣]. وعندما وصلت مصنفات القشيري، والسهروردي، وأبي بكر الدماميني إلى الهند وأصبحت منهجًا دائمًا للصوفية زاد ذلك من تقبل الهنود للإسلام وأصبحت الصوفية عاملاً مساعدًا على إزالة الفوارق بين المجتمعين الإسلامي والهندي فقرّبت المجتمعين من بعضهما[٤]. كما كان لفلسفة اليوغا[٥] دور في إغناء

---

(١) ومن ذلك أن أحد محدثي الهند المسلمين وهو علي المتقي (٨٨٥-٩٧٥هـ/١٤٨١-١٥٦٨م) درس مصنفات السيوطي وأعاد ترتيب وتبويب مصنفه (عرف الورى) ووزعه على فصول وأضاف إليه الكثير فأصبح يحتوي على مقدمة وثلاثة عشر فصلاً. كما أعاد ترتيب مصنف السيوطي الأخر وهو (جامع الجوامع) ورتب الأحاديث فيه بالنسبة إلى الكلمات الأولى وسماه بالجامع الصغير. ينظر : زبيد احمد : المرجع السابق، ص٩٠.

(٢) هو العكوف عن العبادة والانقطاع إلى عبادة الله تعالى، والإعراض عن ملاذ الدنيا وزينتها والزهد والخلوة والعبادة. ينظر : الحسني : الثقافة ...، ص١٧٥-١٧٦.

(٣) الندوي : تاريخ الصلات، ص١٩٨-١٩٩.

(٤) السامر : المرجع السابق، ص٩٢.

(٥) هي طريقة يتخذها الإنسان للحفاظ على صفاء القلب الذي يمكن به الوصول إلى المعرفة الصحيحة، ولكنها لم تدع إلى كبت المظاهر كي تتيح الفرصة لنمو وازدهار القوى الكامنة في الإنسان وتتلخص ممارساتها في قتل الطموح والرغبة للحياة، وإشباع الحواس. ينظر : الندوي : تاريخ الصلات، ص٩٢.

تصور الهنود عن مفهوم التصوف الإسلامي فقد اندمجت فيها بوادر وحدة الوجود والعشق الإلهي "فاعتقاد الهنود في الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء في فعله القادر الحكيم الحي المحي المدبر .. لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شيء"(١).

وهكذا وجد الصوفيون بيئة مناسبة لهم في الهند لنشر معتقداتهم وتقاليدهم وممارساتهم(٢). ونتيجة ذلك ظهرت مصنفات هندية أصيلة في التصوف

تناولت وصف الممارسات الصوفية في طرائقها كافة، كما ظهر شيوخ تزعموا الطرق الصوفية التي نشأت في مختلف الأقاليم الهندية ومنهم : الشيخ ولي الله الدهلوي والشيخ سراج الدين عمر الهندي (ت ٧٧٢هـ/١٣٧١م) (٣) والشيخ عبد اللطيف بن جمال الدين الملتاني(٤) والشيخ عبد الله الحسيني البخاري (ت ٧٩٠هـ/١٣٩١م) وكان شيخًا جليلاً في القدر والمنزلة ودرس الطريقة الصوفية على أنواعها وأصبح مرجعًا فيها(٥). كما جذبت الصوفية السلاطين الهنود حولها واهتموا بها وأقاموا لها دورًا ورباطات في الهند(٦).

*** ***

---

(١) البيروني : المصدر السابق، ص٢٠.

(٢) من أهم الطرائق الصوفية في الهند والتي وصلت عن طريق مصر : السهروردية نسبة إلى شهاب الدين السهروردي ونشرها بالهند الشيخ احمد بن زيد الملتاني (ت ٥٧٧هـ/١١٨١م) أثناء فتوحات شهاب الدين الغوري في الهند، وكذلك الطريقة الجشتية نسبة إلى معين الدين الجشتي (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٠م). ينظر : الندوي : تاريخ الصلات، ص١٩٥ ؛ Maqbul Ahmed : OP. Cit., P., 283.

(٣) زبيد احمد : المرجع السابق، ص١١٦-١١٧.

(٤) هو أحد الشيوخ الهنود الذين التزموا الفقر والتوكل والاستغناء عن الناس مع انقطاعه إلى الزهد والعبادة. ينظر : يونس إبراهيم السامرائي : علماء العرب في شبه القارة الهندية، مطبعة الخلود، (بغداد – ١٩٨٦)، ص١٥٢.

(٥) السامرائي : المرجع نفسه، ص١٥٥. ؛ الحسني : نزهة الخواطر، ج٣، ص١٠٢.

(٦) السامر : المرجع السابق، ص٨٩.

ثالثًا : فن العمارة العربية الإسلامية :-

استطاع المصريون أن يكتبوا لأنفسهم في تاريخ الفن المصري صفحات مشرقة بآيات العظمة الفنية فتركوا ورائهم أمثلة رائعة لفنون العمارة والزخرفة العربية الإسلامية ومثل عصرهم جانبًا من العصر الذهبي للعمارة العربية الإسلامية فكان الإقبال عظيمًا على تشييد القصور والمنشآت الدينية من جوامع ومدارس وخوانق وغيرها وظهرت فيها كافة العناصر المعمارية من قباب ومنارات وأروقة وزخارف[١]. وكان الوسط الرئيس الذي عبّر عنه المسلمون عن إحساسهم بالجمال في الهند هو فن العمارة وهو مجال واسع تبادل خلاله الفكران العربي الإسلامي والهندوسي التأثير في بعضهما[٢]. فقد عرفت الطرز المعمارية الهندية بالقوة والمتانة والدقة بخاصة فيما يتعلق بالرسوم والزخارف التي وجدت في معابدهم، في حين أضاف الفن العربي الإسلامي الذي نُقل من مصر إلى العمارة الهندية التناسق والصفاء. وتعد المساجد التي عمرّها المسلمون في الهند تعبيرًا صادقًا عن الأسلوب العربي الإسلامي في البناء فكانت المساجد عبارة عن عمارة تقام لتغطية مكان فسيح مفتوح وتنقسم إلى غرف وقاعات متسعة في الغالب[٣].

وخير الأمثلة على جمالية العمارة المصرية في العصر المملوكي : مسجد السلطان الظاهر بيبرس فبناؤه فخم ومنظره مظهرًا لعظمة مصر، ونرى في واجهته ظاهرة أدت دورًا مهمًا في العمارة العربية الإسلامية كادت تصبح علمًا عليها وهي تزيين الواجهة بأشرطة عريضة متوازية لونها أصفر، أحمر على

---

(١) محمد عبد العزيز مرزوق : الفن المصري الإسلامي، دار المعارف، (القاهرة – ١٩٥٢)، ص٩١.

(٢) السامر : المرجع السابق، ص٩٤.

(٣) الجدير بالذكر أن أول مسجد تأسس بالهند في عصر سلطنة دلهي واستوفى أسس وعناصر العمارة الإسلامية هو مسجد قوة الإسلام في دلهي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م إذ ظهرت فيه محاولات لدمج الطراز العربي الإسلامي المعروف والطراز الهندوسي في البناء وإيجاد طراز جديد. ينظر : ضياء الدين الديسائي : فن البناء الإسلامي، مجلة ثقافة الهند، م١٧، ع١، يناير، ١٩٦٦، ص٨٢.

التوالي[1]. ومن المظاهر المعمارية الأخرى مسجد وضريح السلطان قايتباي إذ تميز بمئذنته الجميلة وزخارفه البديعة الملونة بالرخام حتى عدّ أدق ما وصلت إليه العمارة والفن العربي الإسلامي في مصر.

ونجد تأثير ذلك كله واضحًا في المساجد والمدارس القصور الهندية، فقد أحدث المسلمون عدة أشكال بنائية في عمارتهم مثل القوس والأعمدة والقبب، وكان الغرض منها تغطية أكبر مساحة وأفسحها، وزينوها داخليًا وخارجيًا بمنارات وبوابات ثنائية نصف مقببة[2]. وقد توافرت لدى المسلمين في الهند عوامل فن البناء والعمارة من مواد إنشائية وغيرها، وقد اتخذوا في بادئ الأمر عددًا من المعابد والأبنية وحوروها ووضعوها في قالب يلائم أغراض بناء المساجد. ونجد في المساجد التي عمرّها السلطان محمد تغلق شاه في سلطنة دلهي مثالاً على التأثير العربي الإسلامي في مجال فن البناء الإسلامي على العمارة الهندوسية. كما نجد في مباني سلطنة كوجرات كل شيء ما عدا القبة والقوس المدبب مطبوعًا بالطابع الهندوسي، إذ كان بناء تلك الأجزاء إسلامية بحتة. ونجد في ضريح السلطان علاء الدين الخلجي وضريح الشيخ الهندي أبو تراب الذي شيد في القرن التاسع للهجرة / السادس عشر للميلاد أمثلة واضحة في هذا المجال.

أما في عهد الأسرة اللودية فقد تعقد الفن المعماري واتجه إلى استعمال الزخارف والمنمقات الشائعة، وأشهر الأمثلة على ذلك ضريح السلطان اسكندر اللودي[3].

□□□ □□□

---

(١) مرزوق : المرجع السابق، ص٩٦.

(٢) الديسائي : فن البناء الإسلامي، ص٨٢.

(٣) السامر : المرجع السابق، ص٩٥.

الخاتمة والاستنتاجات

تبين من خلال موضوع (العلاقات المصرية الهندية ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) أنها لم تقتصر على المدة التي أشرّها البحث فحسب، بل تمتد إلى عصور قديمة قبل الميلاد إذ ظهرت في كل من مصر والهند حضارات أصيلة شهدت اتصالاً وثيقًا بينهما بخاصة فيما يتعلق بالجوانب التجارية والفكرية والدينية.

وعندما ظهر الدين الإسلامي في القرن السابع للميلاد، شهدت تلك العلاقات تطورًا مهمًا، فقد وصلهما الدين الإسلامي بوقت مبكر، إذ أصبحت مصر إقليمًا من أقاليم الدولة العربية الإسلامية في العصر الراشدي، كما أن الجزء الغربي من الهند (السند) أصبح إقليمًا أيضًا من أقاليم الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي. وفي العصر العباسي حدثت عدة تطورات سياسية مهمة لها صلة بكل من مصر والهند، ففي مصر ظهرت الدولة الفاطمية المناوئة للعباسيين سنة (٣٥٨-٥٥٩هـ/٩٦٩-١١٦٣م) ثم أعقبها حكم الأيوبيين (٥٥٩-٦٤٨هـ/١١٦٣-١٢٥٠م). أما في السند فقد انتهى فيها العصر العربي الإسلامي ببداية ضعف الخلافة العباسية ثم بدأت تتعرض لنفوذ وفتوح السلطنة الغزنوية(٣٨٨-٥٨٢هـ/٩٩٨-١١٨٦م) ثم السلطنة الغورية (٥٨٢-٦٠٢هـ/ ١١٨٦-١٢٠٦م).

وتشاء الظروف في كل من مصر والهند بمجيء حكم المماليك إذ ظهر في الهند حكم السلطنة الإسلامية لأول مرة في تاريخ حكم الإسلام في الهند واستمر لغاية سنة ٩٣٠ه/١٥٢٦م فضلاً عن ظهور عدد من الأسر الإسلامية الحاكمة في الأقاليم الهندية. أما في مصر فكان حكم المماليك بمثابة فترة جديدة في تاريخ مصر إذ امتد نفوذهم السياسي إلى مناطق واسعة شملت جزءًا من شبه الجزيرة العربية والحجاز وبلاد الشام. وقد حتمت الظروف السياسية لكل من سلاطين مصر والهند توثيق العلاقات بينهما بخاصة وأن بغداد عاصمة الخلافة العربية الإسلامية قد سقطت سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وبدأت القاهرة بشكل خاص ومصر عامة تأخذ دور بغداد والعراق في خدمة الحضارة العربية الإسلامية

فهي لم تتعرض بشكل مباشر إلى أخطار الغزو المغولي، كما أن الغزو التيموري للهند لم يستمر طويلاً إذ أعقبه حاجة السلاطين الهنود إلى دور ونفوذ مصر السياسي والديني لتوثيق مشروعية الحكم الإسلامي لهم في الهند. ولذلك كان من المتوقع والطبيعي أن تشهد علاقات البلدين تطورات إيجابية مهمة امتد أثرها في كثير من جوانب الحياة، وأسهمت في ازدهار وإغناء الحضارة العربية الإسلامية آنذاك. ففي الجانب السياسي شهدت علاقات البلدين تبادل الوفود والسفارات، وحاجة السلاطين الهنود إلى مراسيم التقليد الشرعي من الخليفة العباسي. كما شهدت تبادل الهدايا ومظاهر التكريم الأخرى وتوظيف ذلك لخدمة علاقات البلدين.

أما في الجانب التجاري فقد تبين وجود حاجة ماسة للبلدين كليهما في تطوير علاقاتهما، صحيح أن العلاقات التجارية بين مصر والهند قديمة ولم تنقطع خلال العصور التاريخية السابقة، إلا أنها قد تطورت كثيرًا خلال المدة (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

فقد كان مماليك مصر بحاجة إلى مختلف المنتجات الهندية للاستفادة من استهلاك قسم منها داخل مصر وتصدير القسم الأخر إلى أوربا وما يترتب على ذلك من ضرائب لمصلحة سلاطين مصر وسكانها. كما أن سلاطين الهند الذين امتازت بلادهم عبر التاريخ بالكثير من المنتجات والبضائع والحيوانات النادرة لم يكن لهم أفضل من الاتجاه إلى مصر. وفي هذا الجانب كان استيراد البضائع وتصديرها للبلدين كليهما غالبًا ما يتم من خلال الطريق البحري المعروف بموانئه (البحر الأحمر). وهنا من الضروري الإشارة إلى دور تجار (الكارم) الذين لم يكونوا تجارًا تقليديين بل أدوا دورًا مهمًا في تقوية العلاقات بين الجانبين بما قدموه من أموال لخدمة الأماكن الإسلامية المقدسة ودور العلم وإقراض السلاطين أثناء الأزمات وغيرها، وقد تبين في هذا الجانب أيضًا أن الميزان التجاري كان يميل لصالح الهند من حيث كثرة صادراتها من التوابل والعطور والمواد الأخرى مع العلم أن هناك أسلوبين كانا سائدين في التعامل التجاري وهما : التعامل النقدي، وطريقة المقايضة.

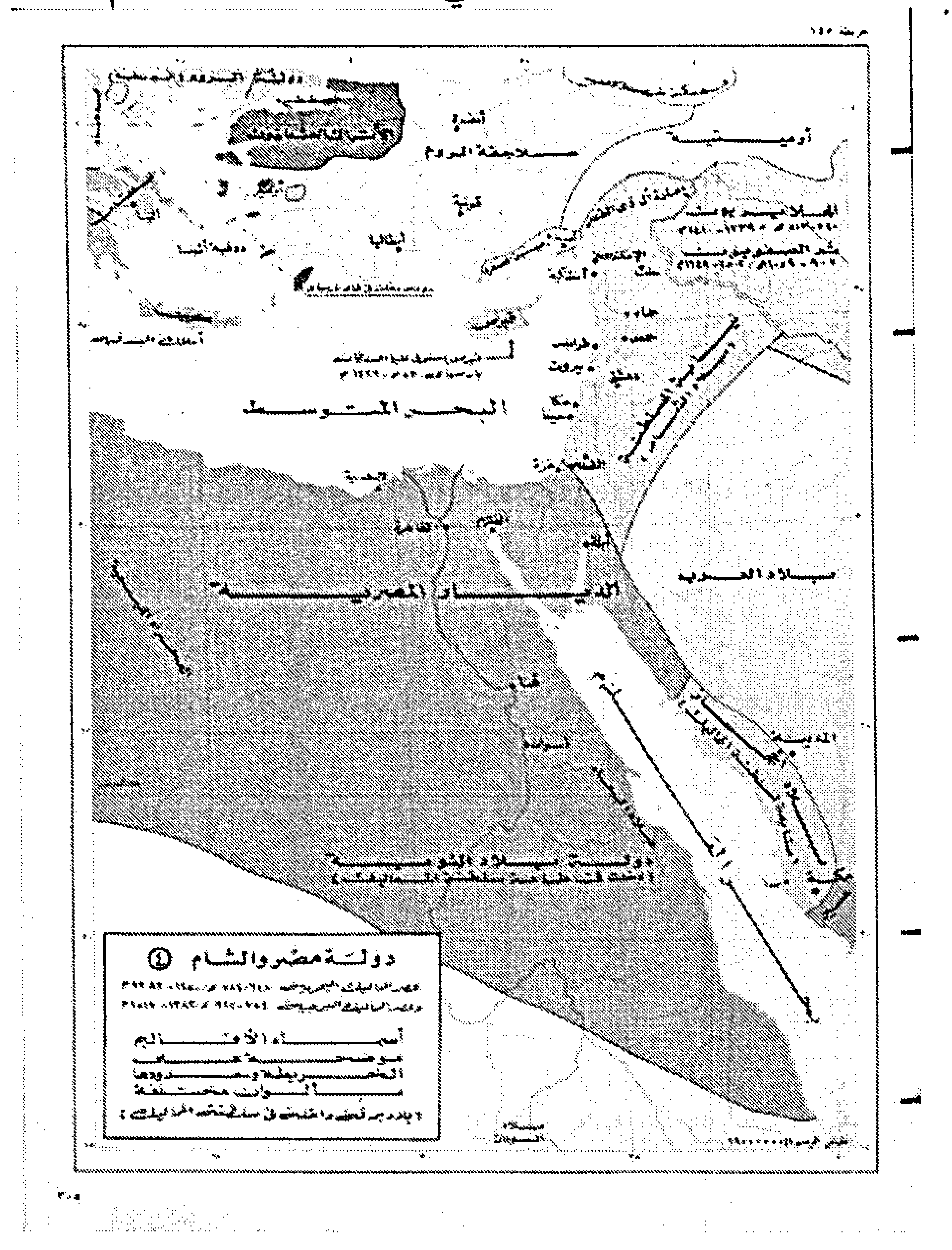
أما الصلات الثقافية والعلمية فقد تبين أن العلوم الدينية والعلوم العقلية كانت هي السائدة في التعليم في كل من مصر والهند وكانت تدرّس في المساجد ثم المدارس، وأثناء ذلك كانت الظروف ملائمة لنمو حركة واسعة من العلماء وطلاب العلم بين البلدين لوحظ خلالها الدور البارز لمصر بضوء مكانتها الحضارية والدينية، وقد استمر ذلك لغاية وصول طلائع الغزو البرتغالي إلى مياه المحيط الهندي سنة ٩٠٥هـ/١٤٩٩م وسقوط المماليك فيما بعد على يد العثمانيين في معركة مرج دابق سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

□□□ □□□

الملاحق والخرائط

الخارطة رقم (١)

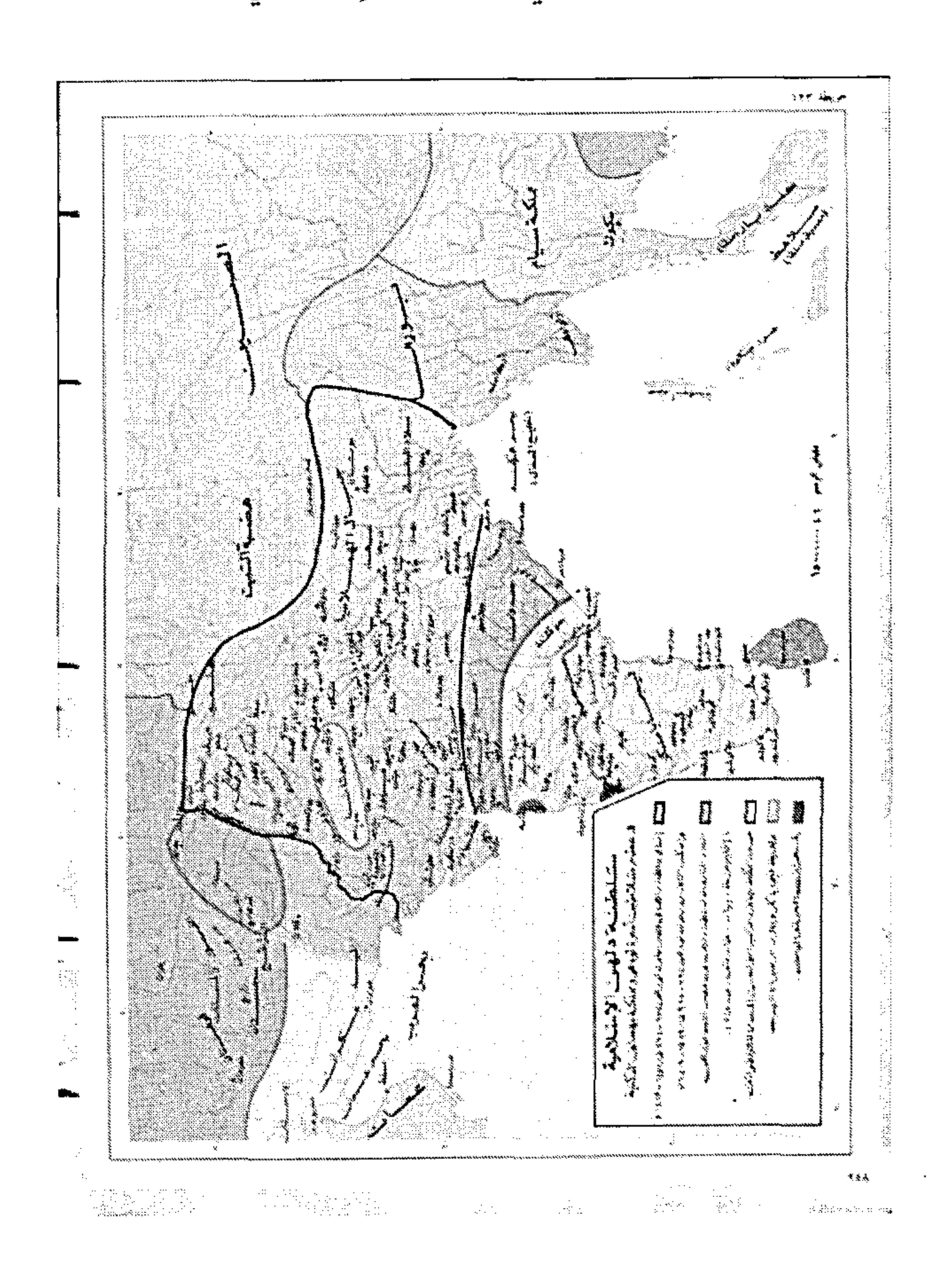
دولة المماليك في مصر وبلاد الشام(*)



(*) نقلاً عن : حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام، تين واه، (سنغافورة – ١٩٨٧)، ص٣٠٥.

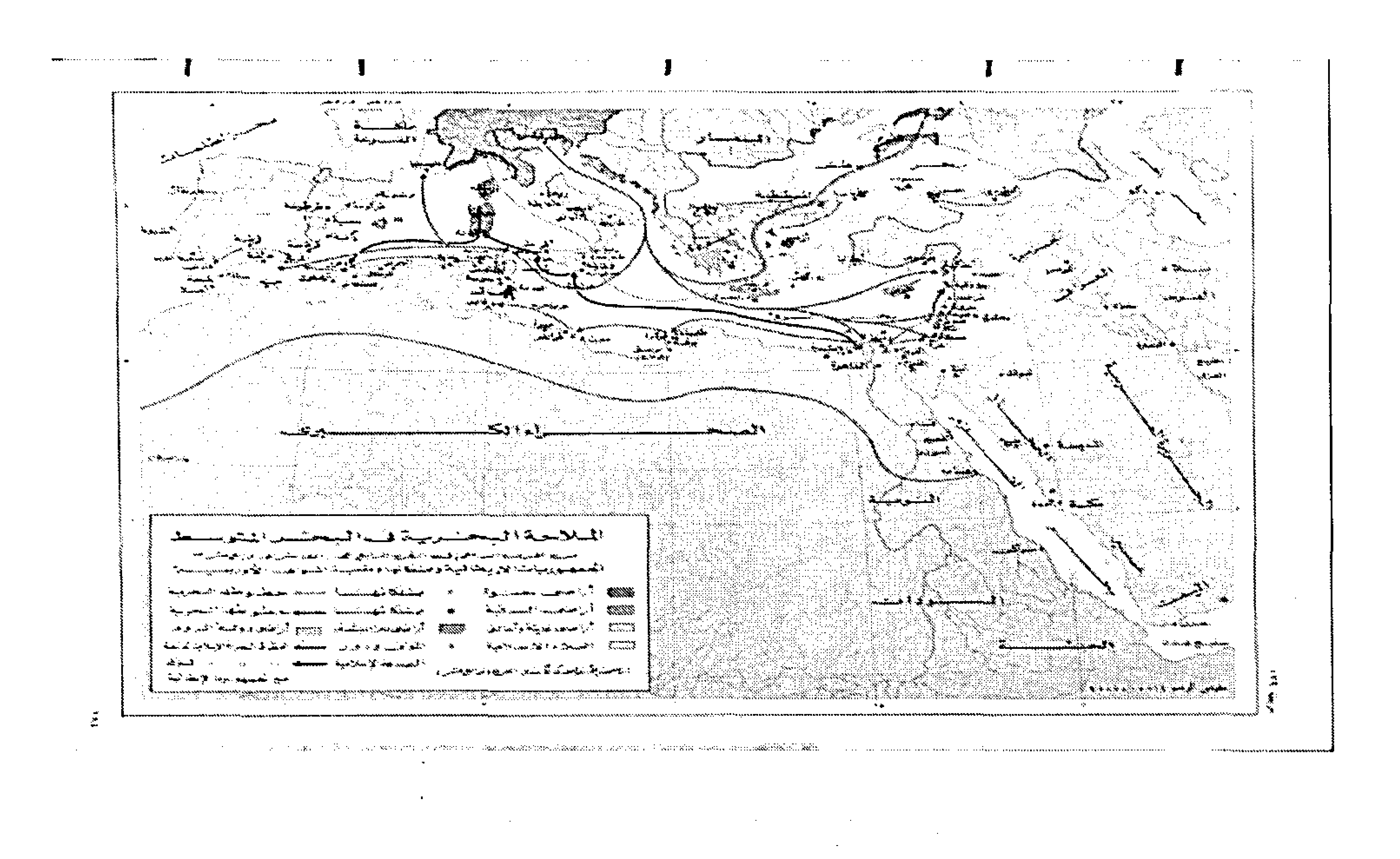
الخارطة رقم (٢)

الهند في العصر الإسلامي(*)



(*) نقلاً عن : حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام، تين واه، (سنغافورة ـ ١٩٨٧)، ص٢٤٨ .

الخارطة رقم (٣)
طرق التجارة البحرية والملاحة في البحر المتوسط *



(*) نقلاً عن : حسين مؤنس : أطلس تـاريخ الإسـلام، تـين واه، (سـنغافورة – ١٩٨٧)، ص٢٨٤.

الملحق رقم (٢)

الأسر الإسلامية الحاكمة في الهند (سلطنة دلهي) *

آ – أسرة المماليك (٦٠٢-٦٨٩هـ/١٢٠٦-١٢٨٩م):-

١. قطب الدين أيبك ٦٠٢-٦٠٧هـ/١٢٠٦-١٢١٠م

٢. ناصر الدين قباجة ٦٠٧-٦٢٥هـ/١٢١٠-١٢٢٨م

٣. شمس الدين التمش ٦٢٥-٦٣٣هـ/١٢٢٨-١٢٣٦م

٤. السلطانة رضية ٦٣٤-٦٣٦هـ/١٢٣٦-١٢٤٠م

٥. معز الدين بهرام شاه ٦٣٧-٦٣٩هـ/١٢٤١-١٢٤٣م

٦. علاء الدين مسعود شاه ٦٣٩-٦٤٤هـ/١٢٤٣-١٢٤٨

٧. ناصر الدين محمود شاه ٦٤٤-٦٦٤هـ/١٢٤٨-١٢٦٦م

٨. غياث الدين بلبن ٦٦٤-٦٨٦هـ/١٢٦٦-١٢٨٦م

٩. عز الدين كيقباذ ٦٨٦-٦٨٩هـ/١٢٨٦-١٢٨٩م

١٠. شمس الدين كيومرث ٦٨٩هـ/١٢٨٩م

ب- أسر الخلجيين (٦٨٩-٧٢٠هـ/١٢٨٩-١٣٢٠م):-

١١ ١٢. جلال الدين فيروز شاه ١٣ ١٤. ٦٨٩-٦٩٤هـ/١٢٨٩-١٢٩٤م

١٥ ١٦. ركن الدين إبراهيم شاه ١٧ ١٨. ٦٩٤-٦٩٥هـ/١٢٩٤-١٢٩٥م

١٩ ٢٠. علاء الدين محمد شاه ٢١ ٢٢. ٦٩٥-٧١٥هـ/١٢٩٥-١٣١٥م

٢٣ ٢٤. شهاب الدين عمر شاه ٢٥ ٢٦. ٧١٥-٧١٦هـ/١٣١٥-١٣١٦م

٢٧ ٢٨. قطب الدين مبارك شاه ٢٩ ٣٠. ٧١٦-٧٢٠هـ/١٣١٦-١٣٢٠م

٣١ ٣٢. ناصر الدين خسرو شاه ٣٣ ٣٤. ٧٢٠هـ/١٣٢٠م

* نقلاً عن : Bosworth : The Islamic Dynasties, P., 186-193.

ج- أسرة التغلقيين (٧٢٠-٨١٣هـ/١٣٢١-١٤١٣م):-

٣٥.	٣٦. غياث الدين تغلق شاه	٣٧.	٣٨. ٧٢٠-٧٢٥هـ/١٣٢١-١٣٢٤م
٣٩.	٤٠. محمد تغلق شاه	٤١.	٤٢. ٧٢٥-٧٥٢هـ/١٣٢٤-١٣٥١م
٤٣.	٤٤. فيروز شاه	٤٥.	٤٦. ٧٥٢-٧٩٠هـ/١٣٥١-١٣٨٨م
٤٧.	٤٨. غياث الدين تغلق شاه الثاني	٤٩.	٥٠. ٧٩٠-٧٩١هـ/١٣٨٨-١٣٨٩م
٥١.	٥٢. أبو بكر شاه	٥٣.	٥٤. ٧٩١-٧٩٤هـ/١٣٨٩-١٣٩١م
٥٥.	٥٦. محمد شاه الثالث	٥٧.	٥٨. ٧٩٤-٧٩٥هـ/١٣٩١-١٣٩٢م
٥٩.	٦٠. همايون اسكندر شاه الأول	٦١.	٦٢. ٧٩٥هـ/١٣٩٢م
٦٣.	٦٤. محمود شاه الثاني	٦٥.	٦٦. ٧٩٥-٧٩٧هـ/١٣٩٢-١٣٩٤م
٦٧.	٦٨. نصرت شاه	٦٩.	٧٠. ٧٩٧-٨١٤هـ/١٣٩٤-١٤١١م
٧١.	٧٢. دولت خان لودي	٧٣.	٧٤. ٨١٤هـ/١٤١١م

د – أسرة السادة الخضر خانيون (٨١٧-٨٥٥هـ/١٤١٤-١٤٥١م):-

٧٥. ٧٦. خضر خان ٧٧. ٧٨. ٨١٧-٨٢٤هـ/١٤١٤-١٤٢٠م

٧٩. ٨٠. معز الدين مبارك شاه الثاني ٨١. ٨٢. ٨٢٤-٨٣٨هـ/١٤٢٠-١٤٣٤م

٨٣. ٨٤. محمد شاه الرابع ٨٥. ٨٦. ٨٣٨-٨٤٩هـ/١٤٣٤-١٤٤٥م

٨٧. ٨٨. علاء الدين عالم شاه ٨٩. ٩٠. ٨٤٩-٨٥٥هـ/١٤٤٥-١٤٥١م

هـ- أسرة اللوديين (٨٥٥-٩٣٢هـ/١٤٥١-١٥٢٥م):-

٩١. ٩٢. بهلول اللودي ٩٣. ٩٤. ٨٥٥-٨٩٤هـ/١٤٥١-١٤٨٨م

٩٥. ٩٦. اسكندر بن بهلول ٩٧. ٩٨. ٨٩٤-٩١٥هـ/١٤٨٨-١٥٠٩م

٩٩. ١٠٠.إبراهيم بن اسكندر ١٠١. ١٠٢.٩١٥-٩٣٢هـ/١٥٠٩-١٥٢٥م

الملحق رقم (٣)

المنشور الذي أصدره السلطان الملك المنصور قلاوون بتأمين التجار الذين يردون إلى بلاده من الصين والهند وغيرهما من البلاد (*)

... من أراد من الصدور الأجلاء الأكابر والتجار وأرباب التكسب وأهل التسبب، من أهل هذه الأقاليم التي عددت والتي لم تعدد، ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد النقلة إلى بلادنا الفسيحة أرجاءها، الظليلة أفياؤها وأفناؤها فليعزم عزمًا من قدّر الله له في ذلك الخير والخيرة، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن، ومسلاة لمن تغرّب عن الوطن، ونزهة لا يملها بصر ولا تهجر للأفراد في الخصر، والمقيم بها في ربيع دائم وخير ملازم ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه. وإن بركة الله حاصلة في رحل من جعل الإحسان فيها من قراضة والحسن من قرضة، ومنها ما إذا أهبط إليها آمل كان له ما سأل، إذا أصبحت دار إسلام بجنود تسبق سيوفهم العدل، وقد عمّر العدل أوطانها وكثر سكانها واتسعت أبنيتها ... وسائر الناس وجميع التجار لا يخشون فيها من يجور فان العدل قدَ أجار.

فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة بالارتحال إليها والقدوم عليها ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحسان يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور، وفي نعمة جزاؤها الشكر وهل يجازى إلا الشكور، وفي سلامة في النفس والمال ... وتبقى أموالهم على مخلفيهم وتستخلصهم لأن يكونوا متفيئين في ظلالها وتصطنعهم، ومن أحضر معه بضائع من بهار وأصناف تحضرها تجار الكارم فلا يخاف عليه في حق، ولا يكلف أمرًا يشق فقد أبقى لهم العدل ما شاق ورفع عنهم ما شق.

... هذا مرسومنا إلى كل واقف عليه من تجار شأنهم الضرب في الأرض **﴿ يبتغون من فضل الله وأخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾**، ليقرؤوا منه ما تيسر

---

* القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج١٣، ص٣٤٠-٣٤٢.

لهم من حكمة ... ويمتطون كاهل الأمل الذي يحملهم على الهجرة ... وبعثت بهذه الوعود الصادقة إليهم تحقق لهم حسن التأميل، وتثبت عندهم أن الخط الشريف حاكم بأمر الله على ما قالته الأقلام ونِعمَ الوكيل.

الملحق رقم (٤)

نموذج لعهد بالتفويض بالحكم الشرعي من الخليفة العباسي المستعين بالله للسلطان الهندي مظفر شاه سنة ٨١٣هـ (*)

عهد شريف عهد به عبد الله ووليه، سيدنا ومولانا الإمام الأعظم العباس أبو الفضل المستعين بالله أمير المؤمنين ... إلى المقام الأشرف العالي، السلطاني، العادلي، الشمسي، أبي المجاهد "مظفر شاه"، أعز الله تعالى أنصاره وقلده السلطنة المعظمة بحضرة "دهلي" وأعمالها ومضافاتها على عادة من تقدمه في ذلك، ولاية عامة شاملة كاملة جامعة ... في سائر الممالك الهندية وأقاليمها وثغورها وحكامها وقضاتها وما احتوت عليه شرقًا وغربًا بعدًا وقربًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وثق عهد النجاح للمستعين به وثبت أوتاده ليفوز من تمسك من غير فاصلة بسببه، وزينّ السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا، وأفرغ على أعطاف الأرض حُلل الخلافة الشريفة، وعلم أن خلفها الشريف زهرة الحياة الدنيا فقال عزَّ من قائل : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾، واختارها من بيت براعة استهلاله في أول بيت وضع للناس، وسبقت إرادته – وله الحمد – أن تكون هذه النهلة من سقاية العباس ... وما أرسل هذا العهد النبوي إلى أحد من ملوك الأرض إلا وعمّه الشرف من جميع جهاته و ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾، وشدة أعواد منبره طربًا ... واستطالت بيد الخلافة لإقامة الحد، وكيف لا ويد الخلافة لا تطاولها يد، وكان المقام الأشرف هو الذي رغب في التمسك بهذا العهد الشريف ليزيل عن ملكه الالتباس ... فأبطل ما دهرّه أهل دهلي بحسن اليقظة وقوة الصولة، وأباد الكفرة من أهل ديو ولم يقبل لهم دية، وفاءوا إلى غير أمر الله فأبادهم بسيفه الهندي فلم تقم لهم فيّة ... وهو بحمد الله غير محتاج إلى التأكيد ... ولكنه تجديد ذكر على ذكر، والله تعالى يمتع بطول بقائه البلاد والعباد، ولا برحت سيوفه الهندية تكلم أعداء هذا الدين بألسنة حداد،

(*) بتصرف نقلاً عن : القلقشندي : صبح الأعشى ...، ج١٠، ص١٣٥-١٤٠.

وثبت ملكه بالعدل وشيّد أقواله وأفعاله، وختم بالصالحات أعماله، والاعتماد على الخط الإمامي المستعيني أعلاه، إن شاء الله.

□□□ □□□

المصادر والمراجع

آ- المخطوطات :-

الذهبي : شمس الدين محمد بن احمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

١- تاريخ الإسلام، مخطوط مصور في مكتبة الدراسات العليا جامعة بغداد، كلية الآداب، برقم ١٦٦١.

مجهول :

٢- تواريخ مصر والشام وحلب ودمشق والقدس .. مخطوط مصور في مكتبة المجمع العلمي العراقي، بغداد، برقم

ب- المصادر :

بن الأثير : عز الدين أبي الحسن علي (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

٣- الكامل في التاريخ، المطبعة الكبرى، (القاهرة – ١٩٦٧).

الاسحاقي : أبو الفتح محمد بن عبد المعطي (ت ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م)

٤- أخبار الأُول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول، مطبعة الحلبي، (القاهرة – ١٨٩٢).

الاصطخري : أبي اسحق إبراهيم بن محمد (ت ٣٤١هـ/٩٥٢م)

٥- المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العالي، مراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، (القاهرة – ١٩٦١).

ابن اياس : محمد بن احمد الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م)

٦- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط١، المطبعة الأميرية، (القاهرة – ١٨٩٤). وطبعة مطابع الشعب، (بغداد – ١٩٦٠).

ابن أيبك : أبي بكر عبد الله الدوادار (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٦م)

٧- كنز الدّرر وجامع الغرر، ج٧، (الدّر المطلوب في مناقب بني أيوب)، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار إحياء الكتب، (القاهرة – ١٩٧٢).

ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجي اللواتي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

٨- رحلة ابن بطوطة، دار صادر، (بيروت – ١٩٦٤).
البلاذري : احمد بن جابر بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)
٩- فتوح البلدان، دار الكتب، (القاهرة – ١٩٦٤).
البيروني : أبو الريحان محمد (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م)
١٠- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، دار المطبعة العثمانية، (حيدر آباد الدكن – ١٩٥٨).
ابن تغري بردي : أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)
١١- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب، (القاهرة – ١٩١٨).
١٢- منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق وليم ببر، (كاليفورنيا – ١٩٣١).
ابن جبير : أبي الحسن محمد بن احمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)
١٣- رحلة ابن جبير، دار الكاتب اللبناني، دار الكاتب المصري، (بيروت – لات).
ابن حجر : شهاب الدين بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)
١٤- أنباء الغمر بأبناء العمر، ط١، مطبعة المعارف العثمانية، (حيدر آباد – ١٩٧٢).
١٥- الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مطبعة المعارف العثمانية، (حيدر آباد – ١٩٧٢).
ابن حسول : أبي العلاء محمد بن علي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)
١٦- تفضيل الأتراك على سائر الأجناد، (بغداد – لات).
الحموي : شهاب الدين عبد الله ياقوت (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٧م)
١٧- معجم البلدان، دار صادر، دار بيروت، (بيروت – ١٩٦٥).
الحنبلي : مرعي بن حماد (ت ٩٢٣هـ/١٥١٧م)
١٨- بديع الإنشاءات والمكاتبات والصفات والمراسلات، مطبعة أنستاس الكرملي، (القاهرة – ١٩١٧).
الحنبلي : ابن العماد أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)

١٩- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدس، (القاهرة – ١٩٤٧).

ابن خرداذبة : أبي القاسم عبد الله (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م)

٢٠- مسالك الممالك، مطبعة بريل، (ليدن – ١٨٨٩).

الخزرجي : الشيخ علي بن الحسين (ت ٨١٢هـ/١٤٠٨م)

٢١- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح محمد بسيوني علي، مطبعة الهلال، (القاهرة – ١٩١٤).

ابن خلدون : عبد الرحمن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

٢٢- العبر وديوان المبتدأ والخبر في ذكر العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، (بيروت – ١٩٧٩).

ابن دقماق : إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م)

٢٣- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المطبعة الكبرى، (القاهرة – ١٨٩٣).

الدمشقي : أبي الفضل جعفر بن علي (ت منتصف القرن ٥هـ/١٢م)

٢٤- الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق البشري الشوربجي، ط١، مطبعة الغد، (القاهرة – ١٩٧٧).

الذهبي : شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

٢٥- العبر في خبر من غبر، ط١، دار الكاتب العربي، (بيروت – ١٩٨٨).

الرامهرمزي : بزرك بن شهريار الناخذاه

٢٦- عجائب الهند بره وبحره وجزائره، مطبعة السعادة، (القاهرة – ١٩٠٨).

ابن رسته : أبي علي احمد بن عمر (كان حيًا سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م)

٢٧- الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، (ليدن – ١٨٩١).

السخاوي : محمد بن عبد الرحمن بن شمس الدين (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)

٢٨- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، (بيروت – لات).

٢٩- التبر المسبوك في ذيل السلوك، المطبعة الأميرية، (القاهرة – ١٨٩٦).
السيوطي : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)
٣٠- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، (القاهرة – ١٩٥٢).
٣١- حسن المحاضرة في تاريخ مصر القاهرة، دار إحياء الكتب، (القاهرة – ١٩٦٨).
أبو شامة : شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)
٣٢- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجيل، (بيروت – لات).
الشرقاوي : عبد الله حجازي (ت ١٢٢٧هـ/١٨١٢م)
٣٣- تحفة الناظرين فيمن وليّ مصر من الولاة والسلاطين، مطبعة الحلبي، (القاهرة – ١٨٩١).
الشهرستاني : أبي الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)
٣٤- الملل والنِحل، دار المعرفة، (بيروت – ١٩٧٥).
الشوكاني : محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)
٣٥- البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، (بيروت – لات).
الصيرفي : علي بن داؤود الخطيب الجوهري (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م).
٣٦- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، (القاهرة – ١٩٧٣).
الظاهري : غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٧م)
٣٧- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولص راويس، المطبعة الجمهورية، (باريس – ١٨٩٤).
ابن عبد الله : الحسن (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٨م)
٣٨- آثار الأُول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق، (القاهرة – ١٨٧٨).
ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ/٨٧٠م)

٣٩- فتوح مصر وأخبارها، مطبعة بريل، (ليدن - ١٩٥٥).
ابن عبد الظاهر : محي الدين (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م)
٤٠- تشريف الأيام والعصور، تحقيق مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، (القاهرة - ١٩٦١).
ابن العبري : غريغوريوس أبي الفرج هارون (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)
٤١- تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت - ١٨٩٠).
٤٢- تاريخ الزمان، نقله للعربية أسحق رملة، قدم له جان موريس فييه، دار المشرق، (بيروت - ١٩٨٦).
ابن عربشاه : شهاب الدين احمد بن عبد الله (ت ٨٥٤هـ/١٤٥٥م)
٤٣- عجائب المقدور في أخبار تيمور، المطبعة العثمانية، (القاهرة - ١٨٨٧).
العمري : ابن فضل الله احمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
٤٤- التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، (القاهرة - ١٣١٢هـ).
العيني : بدرالدين محمود (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)
٤٥- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق هانز أرنست، مطبعة الحلبي، (القاهرة - ١٩٦٢).
الفاسي : تقي الدين محمد بن احمد المكي (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م)
٤٦- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، (القاهرة - ١٩٦٢).
أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)
٤٧- تقويم البلدان، دار المطبعة السلطانية، (باريس - ١٨٤٠).
٤٨- المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، (القاهرة - لات).
ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)
٤٩- تاريخ الدول والملوك، تحقيق قسطنطين رزيق، المطبعة الأمريكانية، (القاهرة - ١٩٤٢).
ابن أبي الفضائل : المفضل (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م)

٥٠- النهج السديد والدّر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (باريس – ١٩٢٨).
ابن الفقيه : أبي بكر احمد بن محمد (ت ٣٦٠هـ/٩٧٨م)
٥١- مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، (ليدن – ١٨٨٤).
ابن الفوطي : كمال الدين أبي الفضل (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م)
٥٢- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، مطبعة الفرات، (بغداد – ١٩٣٢).
القرماني : احمد بن يوسف (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م)
٥٣- أخبار الأُول في آثار الدول، عالم الكتب، (بيروت – لات).
القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)
٥٤- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، دار بيروت، (بيروت – ١٩٦٠).
القلقشندي : احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
٥٥- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط١، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب، (بيروت – ١٩٨٧).
٥٦- ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، تحقيق راينهارت دوزي، (القاهرة – ١٩٥٣).
الكاتب : شافع بن علي العسقلاني (ت ٧٣٠هـ/١٣٣٠م)
٥٧- الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تحقيق عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، (بيروت – ١٩٩٨).
ابن كثير : أبو الفدا الحافظ الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
٥٨- البداية والنهاية في التاريخ، ط١، دار ابن كثير، (بيروت – ١٩٦٦).
المروزي : شرف الزمان بن طاهر
٥٩- أبواب في الصين والهند والترك، منتخبة من كتاب طبائع الحيوان، (لندن – ١٩٤٢).
المسعودي : أبي الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)
٦٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، (بيروت – ١٩٨١).

المعبري : الشيخ زين الدين (ت ٩٥٥هـ/١٥٤٨م)
٦١- تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتكاليين، (لشبونا – ١٨٨٩).
المقدسي : شمس الدين أبو عبد الله احمد (كان حيًا سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م)
٦٢- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، (ليدن – ١٩٠٩).
المقريزي : تقي الدين أبي العباس احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٨م)
٦٣- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، (بيروت – لات).
٦٤- السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح محمد مصطفى زيادة، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة – ١٩٥٨).
٦٥- البيان والإعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، ط١، عالم الكتب، (القاهرة – ١٩٦١).
٦٦- إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيّال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة – ١٩٤٠).
٦٧- شذور العقود بذكر النقود، تحقيق محمد السيد علي بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، (النجف – لات).
٦٨- الذهب المسبوك فيمن حجّ من الخلفاء والسلاطين والملوك، تحقيق جمال الدين الشيّال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة – ١٩٤٠).
ابن مماتي : الأسعد أبو المكارم (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)
٦٩- قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر، (القاهرة – ١٩٤٣).
النسائي : أبي عبد الرحمن بن شعيب (ت ٣٠٣هـ/٩١٥م)
٧٠- سنن النسائي، مطبعة الحلبي، ط١، (القاهرة – ١٩٦٤).
النهروالي : قطب الدين محمد بن احمد (ت ٩٩٠هـ/١٥٨٣م)
٧١- البرق اليماني في الفتح العثماني، ط١، دار اليمامة، (الرياض – ١٩٦٧).
النويري : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٠م)

٧٢- نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة أنستاس الكرملي، (القاهرة – لات).

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٨ﻫ/١٢٩٨م)

٧٣- مفرج الكروب في مناقب بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيّال، المطبعة الأميرية، (القاهرة – ١٩٥٧).

ابن الوردي : أبي حفص عمر زين الدين (ت ٧٤٩ﻫ/١٣٤٨م)

٧٤- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مطبعة عثمان أفندي، (القاهرة – ١٨٦٣).

ج- المراجع العربية والمترجمة :-

إبراهيم : نجيب ميخائيل

٧٥- مصر والشرق الأدنى القديم، ط١، دار المعارف، (القاهرة – ١٩٦١).

احمد : زبيد

٧٦- الآداب العربية في شبه القارة الهندية، ترجمة عبد المقصود محمد شلقامي، دار الحرية، (بغداد – ١٩٧٨).

أميلي : هان

٧٧- الهند، ترجمة عفاف محمد فؤاد، دار المعارف، (القاهرة – ١٩٦٤).

باقر : طه

٧٨- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، شركة التجارة للطباعة، (بغداد – ١٩٥٦).

بانيكار : ك.م

٧٩- آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز جاويد، دار المعارف، (القاهرة – ١٩٦٢).

البصري : علي

٨٠- رحلة التاجر السيرافي، دار الحديث، (بغداد – ١٩٦١).

جرادات : وليد

٨١- الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر، دار الثقافة، (الدوحة – ١٩٨٦).

جواتين : شلمون دوف

٨٢- دراسات في التاريخ والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوصي، (الكويت – ١٩٨٠).

حبشي : حسن

٨٣- رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، دار المعارف، (القاهرة – ١٩٦٨).

الحجي : حياة ناصر

٨٤- العلاقات بين دولة المماليك والممالك الإسبانية، مؤسسة الصباح، (الكويت – ١٩٨٠).

حسن : حسن إبراهيم

٨٥- دراسات في تاريخ المماليك البحرية وعصر الناصر بوجه خاص، ط١، (القاهرة – ١٩٤٨).

الحسني : فخر الدين عبد الحي

٨٦- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد الدكن – ١٩٣١).

٨٧- الهند في العصر الإسلامي، ط٢، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، (نيودلهي – ١٩٧٢).

٨٨- الثقافة الإسلامية في الهند، مطبوعات المجمع العلمي العربي، (دمشق – ١٩٥٨).

حقي : إحسان

٨٩- تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية، مؤسسة الرسالة، (بيروت – ١٩٧٨).

حمادة : محمد ماهر

٩٠- المكتبات في الإسلام، ط٣، مؤسسة الرسالة، (بيروت – ١٩٨١).

أبو زهرة : محمد

٩١- ابن تيمية حياته، عصره، آرائه وفقهه، ط٢، دار الفكر، (القاهرة – ١٩٥٨).

الساداتي : احمد محمود

٩٢- تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، دار الثقافة، (القاهرة – ١٩٧٢).
السامر : فيصل
٩٣- الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، دار الشؤون الثقافية، ط١، (بغداد – ١٩٨٦).
السامرائي : الشيخ يونس
٩٤- العلماء العرب في شبه القارة الهندية، مطبعة الخلود، (بغداد – ١٩٨٦).
سرهنك : إسماعيل
٩٥- حقائق الأخبار عن دول البحار، ط١، مطبعة الأميرية، (القاهرة – ١٨٩٨).
سرور : محمد جمال الدين
٩٦- دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر، (القاهرة – ١٩٤٧).
سليم : محمود رزق
٩٧- عصر سلاطين المماليك، مطبعة المتوكل، (القاهرة – ١٩٤٧).
٩٨- الأشرف قانصوه الغوري، الدار المصرية للطباعة والنشر، (القاهرة – لات).
سليمان : احمد السعيد
٩٩- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرة الحاكمة، ط٣، دار المعارف، (القاهرة – ١٩٦٩).
شاخت وبوزورث :
١٠٠- تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السمهودي، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت – ١٩٧٨).
شلبي : احمد
١٠١- مقارنة الأديان، ط٣، مكتبة النهضة، (القاهرة – ١٩٦٧).
ضومط : انطوان خليل

١٠٢- الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والعسكري والاقتصادي، ط١، دار الحديث، (بيروت - ١٩٨٠).
طرخان : إبراهيم علي
١٠٣- مصر في عصر المماليك الجراكسة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة - ١٩٦٠).
عثمان : شوقي عبد القوي
١٠٤- تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت - ١٩٨٠).
عزام : عبد الوهاب
١٠٥- مجالس السلطان الغوري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة - ١٩٤١).
فهمي : نعيم زكي
١٠٦- طرق التجارة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة - ١٩٧٠).
فييت : جاستون
١٠٧- القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادي، مؤسسة فرانكلن للطباعة والنشر، (بيروت - ١٩٦٨).
لوبون : غوستاف
١٠٨- حضارات الهند، ترجمة عادل زعيتر، (نابلس - ١٩٤٥).
لومبارد : موريس
١٠٩- الإسلام في عظمته الأولى، ترجمة ياسين الحافظ، ط١، دار الطليعة، (بيروت - ١٩٧٧).
أبو الليل : محمد مرسي
١١٠- الهند في العصور الوسطى، (القاهرة - لات).
مبارك : علي باشا
١١١- الخطط التوفيقية، مطبعة بولاق، (القاهرة - ١٨٨٧).
مجموعة مؤلفين :

١١٢- تاريخ الحضارة المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة – لات).
مرزوق : محمد عبد العزيز
١١٣- الفن المصري الإسلامي، دار المعارف، (القاهرة – ١٩٥٢).
مصطفى : نادية محمود
١١٤- العلاقات الدولية في الإسلام، المعهد الإسلامي للعلاقات الدولية، (القاهرة – ١٩٩٦).
مورتيل : شارل
١١٥- الأحوال السياسية والاقتصادية لمكة في العهد المملوكي، جامعة الملك سعود، (الرياض – ١٩٨٤).
ميتز : آدم
١١٦- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكاتب العربي، (بيروت – ١٩٦٧).
الندوي : محمد إسماعيل
١١٧- تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، دار الفتح، (بيروت – لات).
١١٨- الهند القديمة، دار الشعب، (بغداد – ١٩٧٠).
النمر : عبد المنعم
١١٩- تاريخ الإسلام في الهند، ط١، دار العهد الجديد، (القاهرة – ١٩٥٩).
هاو : سونيا بن
١٢٠- في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، مكتبة النهضة، (القاهرة – ١٩٥٧).
هنتز : فالتر
١٢١- المكاييل والأوزان وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، (عمان – ١٩٧٠).
ولش : ريتشارد . جي

١٢٢- ماركو بولو، رحلاته واستكشافاته، ترجمة حسن حسين الياس، منشورات دار البصري، (بغداد – ١٩٧٩).

اليوزبكي : توفيق سلطان

١٢٣- تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي، مؤسسة دار الكتب، (الموصل – ١٩٧٥).

د – الرسائل الجامعية :-

بسرور : رشيدة

١٢٤- الأسكندرية في العهد المملوكي، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، (تونس – ١٩٨٦).

حمود : حسين ظاهر

١٢٥- التجارة في العصر البابلي القديم، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار، (جامعة الموصل – ١٩٩٥).

الطحطوح : حسين علي

١٢٦- مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في الهند، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، (جامعة الموصل – ١٩٧٩).

منصور : احمد إبراهيم عبد

١٢٧- النظام الاقتصادي والاجتماعي في مصر المملوكية مع إشارة خاصة لفكر المقريزي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإدارة والاقتصاد، (جامعة الموصل – ١٩٩٦).

Tahtooh : Hussain Ali

128- Commercial Relations Between The Arab World and India (3rd and 4th / 9th and 10th C.), St. andrews (U.K. – 1986).

هـ- البحوث والمقالات العربية :-

إبراهيم : محمد كريم

١٢٩- العلاقات التجارية بين عدن والهند في ق٦-٧هـ/١٢-١٣م، مجلة المؤرخ العربي، ع٣٣، (بغداد - ١٩٨٧).

اسكندر : توفيق

١٣٠- نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية، المجلة التاريخية المصرية، ع٦، (القاهرة - ١٩٥٧).

بالا : مادو

١٣١- التراث الهندي العالمي، مجلة آفاق الهند، يوليو، ١٩٩٥.

بشارة : عائدة

١٣٢- مشاهدات سائحة في الهند، مجلة ثقافة الهند، ع٢، أبريل، ١٩٦٢.

تارا شند :

١٣٣- الثقافة الإسلامية ووصول المسلمين الهند، مجلة ثقافة الهند، ع١، مارس، ١٩٥٠.

تشوبرا : بي.ان

١٣٤- العلاقات الثقافية بين الهند والجمهورية العربية المتحدة، مجلة ثقافة الهند، ع٤، أوكتوبر، ١٩٦٢.

حسين خان : يوسف

١٣٥- نظام التعليم في الهند في العصور الوسطى، مجلة ثقافة الهند، أبريل، ١٩٦١.

حمدي : نازك

١٣٦- الفن والثقافة عند المصريين والهنود، مجلة صوت الشرق، ع٩٩، (القاهرة - ١٩٦٠).

دراج : احمد

١٣٧- عيذاب من الثغور العربية المندرسة، مجلة المؤرخ العربي، ع٧، (بغداد - ١٩٧٨).

الديسائي : ضياء الدين

١٣٨- فن البناء الإسلامي، مجلة ثقافة الهند، ع١، يناير، ١٩٦٦.

١٣٩- الهند والشرق الأدنى في غضون القرنين ١٣-١٥م، مجلة ثقافة الهند، ع٢، ١٩٩٠.
علي : جمال منّاع
١٤٠- بين النيل والجانجا، مجلة ثقافة الهند، ع٣، يوليو، ١٩٦٣.
فلكا : بيتر
١٤١- لماذا تخلف الشرق، مجلة فكر وفن، ع٤٠، (ألمانيا – ١٩٨٤).
لبيب : صبحي
١٤٢- التجارة الكارمية وتجارة مصر الخارجية، المجلة التاريخية المصرية، ع٢، (القاهرة – ١٩٥٧).
الندوي : سليمان
١٤٣- شهادة التوراة على قدم العلاقات الهندية العربية، مجلة ثقافة الهند، ع٢، يونيو، ١٩٥٠.
النعماني : شبلي
١٤٤- العالم العربي والرحالة الهنود، مجلة ثقافة الهند، ع١، ١٩٩٢.
يوسف : السيد
١٤٥- بدء العلاقات العلمية بين الهند والعرب، مجلة كلية الآداب / القاهرة، ع١٢، مايو، ١٩٥٠.

و- الدراسات الأجنبية :-

Ahmed : Aziz
146- Studies in Islamic Culture in Indian Environment, (Oxford – 1964).
Ahmed : Maqbul
147- The Indo-Arab Relation (Newdelhi – 1978).
Ashtor : Elyaho
148- A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages, (London – 1976).

149- Studies on the Leavanting Trade in the Middle Age, (London – 1976).

Basham : A.L.

150- The Wonder that was India, (London – 1962).

Bosworth : C.E.

152- Islamic Dynasties, (Edinburgh – 1967).

Fischel : W.G.

153- The Spice Trade In Mamluk Egypt, J.E.S.H.O., Vol., I, 1960.

Freeman – Grenville : G.S.P.

154- The East African Coast (Oxford – 1966).

Holt : P.M.

155- "Mamluk" El2, Vol. 6.

Ikram : S.M.

156- Muslim Civilization in India, Columbia Press, (U.S.A. – 1964).

Goitein : S.D.

157- A Mediterranean Society, (Los Angeles – 1967).

158- From the Mediterranean to India, Documents Indian Trade, South Arabia and East African Coast From 11,12 C. Speculum, Vol., 39, April, 1954.

159- New Light of the Beginnings of Karmi Merchants, J.E.S.H.O., Vol., I, 1959.

Jauhri : R.C.

160- Learning and Literature During the region of Firoz Shah Tughluq, I.C., Vol., XLI (Deccan – 1967).

Labib : S.

161- "Karimi" EL2, Vol., 4.

Leemans : W.F.

162- Old Babylonian Merchant, Leiden, (Brill – 1950).

Mahmud : S.F.

163- The Story of Islam, (London – 1965).

Moreland : W.H.

164- A Short History of India, (London – 1968).

Mujeeb : M.

165- The Indian Muslims, (London–1967).

Murray : Margaret A.

166- The Splendour that was Egypt, (London – 1963).

Nadavi : S.

167- The Indo – Arab Relation Commercial, I.C. April, 1933.

Nehru : J.L.

168- Discovery of India, (London – 1956).

Poole : S.Lane

169- Egypt in the Middle Ages, (Holland – 1968).

Serjeant : A.B.

170- The Portuques in the South Arabian Coast (Oxford – 1963).

Saunders : J.J.

171- A History of Medieval Islam, (London – 1980).

Taussaint : A.

172- A History of Indian Ocean (London – 1966).

Wheeler : M.

173- Civilization of Indus Vally and Beyond (London–1966).

White : Manship

174- Ancient Egypt, (London–1970).

Zaroubi : Nasiri

175- Egypt as History, Vantage Press (U.S.A – 1977).

□□□ □□□

المحتويات

هذا الكتاب

مما لا شك فيه أن دراسة العلاقات السلمية بين البلدان والشعوب أسهمت بصورة كبيرة في إغناء الحضارة والتراث وتطويرهما في مختلف العصور التاريخية. وعلى هذا تأتي أهمية موضوع (العلاقات المصرية الهندية ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م). فقد اتصل سكان مصر القديمة مع شعوب شبه القارة الهندية منذ مدد قديمة قبل الميلاد، وكان لذلك الاتصال أثره المهم في إنضاج المعرفة ومختلف جوانب الحضارة القديمة التي شهدها البلدان وتطويرها ومنذ الربع الأول من القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد وصل الدين الإسلامي إلى مصر إذ أصبحت إقليمًا تابعًا للدولة العربية الإسلامية واستمر ذلك لغاية خضوع مصر لحكم الفاطميين (٣٥٨هـ/٩٦٨م) ومن ثم الأيوبيين (٥٦٧هـ/١١٧١م) في حين تم فتح الأجزاء الغربية من الهند (السند) قبيل نهاية القرن المذكور في أعلاه، وبذلك أصبح كل منهما إقليمًا تابعًا للدولة العربية الإسلامية.

وتكمن أهمية بحثنا في أعلاه من أنه يؤشر مرحلة جديدة في كل من مصر والهند، فقد ظهرت في الهند السلطنة الإسلامية (٦٠٢ هـ/١٢٠٦م) والتي تعد أول نظام حكم إسلامي يحمل هذا اللقب من داخل الهند، حيث امتد نفوذ الإسلام وحكمه تدريجيًا إلى مختلف أقاليم الهند وكان سلاطين الهند على علاقة ودية مع الخلافة العباسية في بغداد أولا ثم تابعوها بعد انتقالها إلى القاهرة.

أما مصر فقد حكمتها أسر من المماليك سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) وقدم إليها عدد من أبناء الخلفاء العباسيين (بعد احتلال المغول لبغداد) الأمر الذي أضفى عليها أهمية خاصة.



Bibliotheca Alexandrina
1502328


I.S.B.N. 978_977_276_742_7
6 222008 910646